جامعة قاصدي مرباح . ورقلة
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة ماستر أكاديمي

الميدان: علوم إنسانية

الشعبة: فلسفة

التخصص: تاريخ الفلسفة

من إعداد الطالبتين: خدير آمال

رحومة سمرة

بـعـــــنـــوان:

نظرية التحدي و الاستجابة عند أرلوند توينبي

نوقشت و أجيزت علنا بتاريخ: .2015/06/01

أمام اللجنة المكونة من:

1- بن رابح عمر ..... **(رئيسا)**

2- شـهـيـدة لـعـمـور ي ..... **(مشرفا ومقررا)**

3- بن قويدر عاشور ..... **(مناقشا)**

الموسم الجامعي: 2015/2014

شكر و عرفان

الحمد لله الذي خلقنا و أكرمنا بنعمة العقل و الإسلام.

والحمد لله الذي أنار لنا درب العلم والمعرفة وأعاننا على أداء هذا الواجب إلى إنجاز هذا العمل.

يشرفنا أنا نتقدم بالشكر والتقدير للأستاذة الفاضلة: " لعموري شهيدة" التي لم تبخل علينا بتوجيهاتنا التي كانت لنا عونا في إتمام هذا البحث.

كما نتقدم كذلك بالشكر إلى كل الأساتذة الذين ساعدونا طيلة سنوات دراساتنا في هذا التخصص.

مـــــــــقدمـــــــــــة

مـقدمـة

شهد القرن التاسع عشر نضج علم التاريخ في أوربا الغربية كما نضجت النظريات التي بدلت جهدا مرموقا بغية استيعاب ماهية التاريخ ، بل و التحكم بمساره لصالح الغربيين، نظرا للمشكلات التي واجهها المنظرين في فهم فلسفة التاريخ أمثال ادوارد جيبون Edward Gibbon (1737_1794)، أوزفالد اشبنجلر Oswald Speugler (1880-1936)؛ وفي هذا الزخم الثقافي ظهر المنظّر والمؤرخ والفيلسوف "أرنولد توينبي"(1889_1975) الذي كان فلتة عصره آنذاك باهتمامه المختلف في دراسة الحضارات الإنسانية عامة منذ القدم، مما غير تصورنا المقتصر على تشبيه الحضارات بالكائن العضوي _ الذي سار عليه أسلافه_ إلى عدة تصورات، وتمخض عن ذلك إنتاجه " **لنظرية التحدي والاستجابة**" التي اتخذها كعامل أساسي لمقارنة الحضارات فيما بينها، وتحديده لأهم الأسباب التي تؤدي إلى انهيارها، وما مصير كل حضارة من الحضارات في تاريخ البشرية، إذ درس حوالي إحدى وعشرون حضارة بطريقة حيادية موضوعية، واستنتج أن هناك ستة حضارات أصليةوفق فكرة الأبوة ّوالبنو ّ ة، وهذا ما اتضح جليا في مجلده الضخم الذي فسّ ر فيه عوامل قيام ونمو الحضارات وصولا إلى اندثارها، وذلك بسبب عجز هذه الحضارات على مو اجهة التحديات التي كانت تصارعها بأنواعها طبيعية كانت أو بيئية، رغم وصولها لذروة الرقي والازدهار؛ ولعل الحضارة الإسلامية التي شغلت فكر أرلوند توينبي أكبر دليل على ذلك، إذ أنه يرى نظرية التحدي والاستجابة مجسّ دة في هذه الحضارة، باعتبارها من إحدى الحضارات التي صنعت تاريخ البشرية، وسطع شمسها على مسرح التاريخ الإنساني برمته وهو ما لاحظناه في مؤلفاته.

وقد وقع اختيارنا لهذه الدراسة نظرا لعدة أسباب منها الموضوعية و الذاتية إذ نذكر أهمها:

مـقـدمـة

الأسباب الموضوعية: رغبتنا في تزويد المكتبة الجامعيةوا ثراءها بهذه الدراسة التي نرى أنا لها الأهمية الكبرى الجديرة بالقراءة، واستفادة الجيل القادم منها، بالإضافة إلى قيمة الموضوع وقوة طرحه في فلسفة الحضارة، مما جعله موضوع جدير بالدراسة في هذا التخصص لاسيما الكشف عن نظرية التحدي و الاستجابة وما لها من أثر في قيام الحضارات وانهيارها.

الأسباب الذاتية: شغفنا الكبير لمعرفة فكر المؤرخ والفيلسوف أرلوند توينبي، المتميز بنظرته المختلفة عن سابقيه، والكشف عن أهم أفكاره المتعلقة بالحضارة؛ وهذا ما آثار فضولنا العلمي لمعرفة الكثير عن جوانب هذه النظرية، ومدى تطبيقها على الحضارة الإنسانية عامة، والحضارة الإسلامية خاصة، وكذلك إبراز موسوعيته، وقوة مناعته الفكرية الفلسفية.

وانطلاقا من هذه المعطيات، فإن إشكالية الدراسة تتمحور حول: التعرف على الجانب التنظيري لفكرة التحدي والاستجابة في فكر توينبي ومدى تطبيقها في الواقع. فتكون الإشكالية الرئيسية كالتالي:

كيف نظّر توينبي لهذه النظرية؟ وما مدى نجاحه في إسقاطها على المعطى التداولي العربي الإسلامي؟ و تحتها تتدرج تساؤلات فرعية أهمها: ما هو المعنى الذي قدّمه "أرلوند توينبي "لنظرية التحدي والاستجابة؟ ما هي مراحل قيام كل حضارة ؟ وما هو سبب انهيار ها ؟ وما هي أهم الاقتراحات التي يرى فيها إمكانيةقإذ الحضارات من الفناء المُ قدرة لها؟

وفي إطار مناقشة هذه الإشكالية استخدمنا المنهج التحليلي عامة، حيث عملنا بمقتضاه على تجزئة وتحليل القضايا العامة الكلية لننتهي عند نهاية كل فصل برؤى واضحة وفهم صحيح لكل عناصره، وفي بداية الدراسة اعتمدنا على المنهج التحليلي الوصفي بغية ضبط المفاهيم الرئيسية في البحث، أما بقية

البحث فقد فرض علينا استخدام المنهج التحليلي النقدي، للكشف عن أهم الأفكار التي انتقد فيها توينبي سابقيه.

وحتّمت علينا هذه الدراسة التطرقإلى مقدمة وفصول نبيّن فيها ما اعتمدنا عليه:

المقدمة : وفيهابيّ نا أهمية الموضوع و إشكاليته والمنهج المتبع، ثم الخطة المقترحة لذلك.

الفصل الأول: والموسوم بتوينبي ونضوجه الفكري تناولنا في مبحثه الأول نبذة عن الشخصية و العصر الذي عاشت فيه، أما المبحث الثانيبيّ نا فيه أهم التيارات الكبرى التي أثّرت في فكره كأثر أوزفالد اشبنجلر و ابن خلدون.

الفصل الثاني : حمل عنوان تأسيس توينبي لنظرية التحدي والاستجابة، إذ اخترنا ثلاث مباحث؛ فالأول حددنا فيه المفاهيم الأساسية للنظرية متمثلة في مفهوم التحدي والاستجابة؛ أما المبحث الثاني شمل أنواع التحديات والاستجابات التي رأى فيها ذلك الاختلاف في الفعل ورد الفعل. وصولا إلى المبحث الثالث الذي عالج كل من الجانب الإيجابي و الجانب السلبي من النظرية، نظرا لطريقته المضادة في تأسيسه للأفكار و دحضه لأخرى التي يرى فيها عقبة في نشوء الحضارات.

أما الفصل الثالث: والذي عنوناه بالبعد الحضاري عند أرلوند توينبي يضم أربعة مباحث؛ فالأول مبحث مفاهيمي عرّ فنا فيه الحضارة من لغة واصطلاحا وكل ما يتعلق بها،و الثاني بيّ نا فيه نظرة توينبي إلى كيفية نشوء الحضارات وتعاقبها؛ أما في الثالث فتطرقنا فيه إلى إسقاط نظرية التحدي والاستجابة على المعطى التداولي العربي الإسلامي، وفي الرابع ارتأيناطر ح مقترحات توينبي لإنقاذ الحضارات من الانهيار.

الخاتمةبيّ نا فيها أهم الاستنتاجات التي تمخضت عن هذه الدراسة.

إذا اعتمدنا أهم مصادر توينبي العربية منها: مختصر دراسة التاريخ بأجزائه، وكذلك تاريخ الحضارة الهلينية ، حرب وحضارة ...الخ.

أما عن مصادره باللغة الأجنبية فقد استخدمنا المصدر الفرنسي: (Toynbee Arlond; l'histoire) والمصدر الإنجليزي: (Toynbee, Arlond, Josef, Study of history)

بالإضافة إلى اعتمادنا على أهم المراجع التي تتحدث عن الموضوع أو جانبا منه كتدهور الحضارة الغربية عند أوزفالد اشبنجلر، والتي خصته بالبحث و التحليل مثل : فلسفة التاريخ لأحمد صبحي، في فلسفة التاريخ لرأفت غنمي الشيخ،بالإضافة إلى اعتمادنا على أهم الدراسات السابقة التي خصّ ت الموضوع مثل مذكرة" الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة" لزياد عبد الكريم النجم، مذكرة" دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي "لهدى بوفضة" .

و قد واجهتنا العديد من الصعوبات كطبيعة الموضوع وتشعّ به في جانبيه التاريخي والفلسفي وصعوبة الإلمام بكل الحقائق التاريخية لمعرفة كنهها؛ وكذلك عدم وجود كل المعلومات التوثيقية في بعض الكتب الإلكترونية؛ ضف إلى ذلك تقيدنا بحجم الصفحات الذي وقف كعقبة أمام توسعنا أكثر للموضو ع، لكن حب الإطلاع والدراسةو الاكتشاف جعلنا نتجاوز ذلك.

الفـصـل الأول: أرلـوند توينبي ونضوجه الفكري الفلسفي العالمي.

المبحث الأول: نـبـذة عـن حـــيـاة أرلـونـد تـوينـبي.

المبحث الثاني: المؤثرات الفـكـريـة الـتـي صـاغت فكره.

أرلوند توينبي ونضوجه الفكري الفلسفي العالمي

قبل الولوج في تفاصيل نظرية التحدي و الاستجابة عند أرلوند توينبي وكيف حاول التأسيس لمدلولها ينبغي أولا أن تكون شخصية هذا المؤرخ الفيلسوف حاضرة أمامنا ، إذ حاولنا أن نكو ّن فكرة حول مرجعيته من خلال التيارات الكبرى التي أثرت في فكره.

المبحث الأول: نبذة عن حياة أرنولد توينبي.

ولد **جوزيف أرنولد توينبي**"**Arlond Toynbee**" في يوم 14أفريل 1889 في لندن عاصمة انجلترا من أبوين مسحيين، وكان والده يعمل موظفا بشركة شاي، وكانت والدته حاصلة على درجة الباكلوريس في التاريخ ومعلمة لمادة التاريخ في إحدى الثانويات[1] ولقد درس اللغتين اليونانية واللاتينية وأحاط بالحضارة الهللينية التي تعتبر في رأيه أساسية في فهم الحضارة الغربية المعاصرة، عايش توينبي أحداث الحربين العالميتين الأولى والثانية فانفعل بها، وجاءت نتيجة ذلك موسوعته الضخمة[2] (دراسة التاريخ)؛ وكذلك تقلّد عدة مناصب فعمل في جامعة لندن للغة البيزنطية واليونانية الحديثة وآدابهما وتاريخهما منذ عام 1919حتى عام 1924، ومن ثم أستاذ للبحث العلمي في التاريخ العالمي في الجامعة نفسها عام 1925حتى عام 1955وكذلك عُ ين مديرا للمعهد الملكي للشؤون الدولية ومقره" تشانام هاوس" فضلا على عمله المذكور سابقا[3] ولقد تفجرت شهرته في نطاق واسع في أمريكا و اليابان والشرق الأوسط وكتب

---

[1] / رأفت غنمي الشيخ، فلسفة التاريخ، (لقاهرة، دار الثقافة، 1988)، ص181.

[2]/ رأفت غنمي الشيخ، تفسير مسار التاريخ ـ نظريات في فلسفة التاريخ ـ ، (الإسكندرية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000)، ص195.

[3]/ حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخين، (القاهرة، دار المعارف، 1984) ، ص 177.

معظم أعماله الفكرية، كما يمكن أن نشير إلى تلك الصفة التي لازمته طول حياته وهي حبه للسفر و الترحال، إذ كان يرى أن السفر يجب أن يسبق كل شيء عند من يدرس الشؤون الإنسانية لأن الناس والمجتمعات الإنسانية لا يمكن فهمها بمعزل عن بيئاتها[1]؛ومن الزيارات الكثيرة التي قام بها توينبي يمكن أن نذكر زياراته المتكررة لليونان وتركيا التي بدأت عام 1912واستمرت حتى عام 1957 وزيارته المتكررة إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام 1939وعام 1948، أما زيارته لمختلف بلدان الوطن العربي من بين عامي 1961 حتى 1965. وتوفي أرنولد توينبي عن عمر يناهز 86 سنة في 1975[2]، ولقد عاصر توينبي منذ مطلع القرن العشرين أحداثا أروبية حاسمة، ففي 1904 انتهى تقريبا التنافس الانجليزي الفرنسي لعقد الاتفاق الودّي بين الدولتين على حساب مصر، وبدأ التنافس الانجليزي الألماني بعد أن برزت أطماع ألمانيا الاستعمارية للقضاء على السيادة البحرية الانجليزية بالإضافة إلى معاصرته[3] للأزمة الاقتصادية عام 1930 التي عصفت باقتصاديات العديد من دول العالم بما أحدثته من كساد اقتصادي كبير، وأعقب ذلك محاولة ألمانيا التخلص من شروط معاهدة فرساي المحققة بها، بعد وصول الحزب النازي إلى الحكم في الثلاثينيات من القرن العشرين وإعادة تسليح ألمانيا. وفي وسط هذه الأحداث عاش توينبي وتأثر بها وشاهد تراجع بلاده انجلترا عن صدارة العالم وخشي اضمحلال الحضارة الغربية، فانكب يدرس الحضارات القديمة لمعرفة أسباب تدهورها وفنائها[4]. أما عن مؤلفات توينبي فقد أنتج جملة واسعة من الأعمال التخصصية والعامة، التي تنحو في معظمها منحنى البحث التاريخي والسياسي

[1]/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، (القاهرة، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1975)، ص260.

[2]/ أرلوند توينبي، تاريخ الحضارة الهللينية، تر: رمزي جرجس، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1957) ص 13.

[3]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، تر: فؤاد محمد شبل، ج4، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2011)، ص85.

[4]/ رأفت غنمي الشيخ، تفسير مسار التاريخ، ص195.

والإيديولوجي، إذ لم نجد بين مؤلفاته العديدة كتابا واحدا يحمل عنوانا فلسفيا ومؤلفاته كالتالي: الحرب والحضارة عام 1925، الفكر التاريخي عند اليونان 1950، العالم والغرب 1953، الوحدة العربية آتية من النيجر إلى النيل، 1967 تاريخ الحضارة الهللينية، محاكمة الحضارة، تاريخ البشرية[1]؛ و الكتاب الأشهر عنده هو "دراسة التاريخ " في اثنتا عشرة جزءا حيث شرع في تأليفه من عام 1921حتى 1961.

المبحث الثاني: المؤثرات الفكرية الكبرى التي صاغت فكره

لقد عاش توينبي في عصر يعج بالتيارات الفكرية الفلسفية والعلمية، ذلك أن الباحث في التاريخ الشامل مثله، لا ريب أن يتأثر بكثير من الأفكار والتصورات التي يصادفها في سياق قراءته لتراث الماضي البعيد والفكر المعاصر، ومن هذا كله يكون من الصعب الإلمام أو حصر كل مصادره الفكرية التي أثرت في تكوين فكريه، لأنها كانت متشعبة، من بواكير الفكر الشرقي القديم إلى الأدب اليوناني والفكر العربي الإسلامي ...الخ يقول:" نظرتي إلى التاريخ ليست هي نفسها سوى جزء يسير منه ذلك لأن العمل الذي يؤديه الباحث في حياته إنما يقوم على إضافة دلو الماء إلى نهر المعرفة العظيم المتزايد. ذلك النهر الذي يرفد مالا عادله من الدلاء المماثلة"[2]. ولا يكتفي توينبي بهذا التعميم، ولكنه يثبت في المجلد الأخير من موسوعته أسماء عدد كبير من أعلام الفكر الذين كانوا له بما أضافوا إلى التر اث الإنساني من نتاج عقولهم الخلاقة، ينابيع إلهام وهداية، وفي بحثنا هذا نلخص بعض الشخصيات التي كانت لها أثر كبير في تكوين فكر توينبي، فمع القديس أوغسطين"Saint Augustine" قد التقى معه في ثلاث مواضيع: الأول: موضوع التاريخ، الثاني: نظرية العناية الإلهية، الثالثالمـُ ثل الأعلى للدولة.

[1]/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص259.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج4، ص234.

فعن الأول: تأثر به توينبي لازدواجيته الفكرية بين النزعة الصوفية و النزعة الفلسفية التي غرفها من التراث المسيحي[1]،

فكان تصوره يبدأ من الخلق وينتهي بالدنيوية(القيامة)[2]؛ولهذا عدّ توينبي الحضارة الوحدة الحقيقية لدراسة التاريخ وهي البنية الأساسية الأولى في منهجه، وأن هذه الوحدة لا تستند على فكرة القومية أو سياسة، بل أنها دراسة معينة من البشر يطلق عليهم اسم المجتمع .

أما عن الموضوع الثاني؛ كلاهما يقران بأن كل وقائع التاريخ تخضع للتدبير الإلهي[3] . باعتبار أن كل فعل يقوم به الإنسان هو بتخطيط إلهي، وكل ما يحدث هو من مشيئة الله و يجب على الإنسان الالتزام بذلك[4].

[1]/ عبد الرحمن بدوي، العصور الوسطى، ط3، (بيروت، دار القلم، 1979)، ص ص 16 ،17.

[2]/ زياد عبد الكريم الدّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، إشراف: عيسى بشارة، (دمشق ،جامعة دمشق، 2007)، ص 19.

[3]/ عبد الرحمن بدوي، العصور الوسطى، ص ص 16،17.

[4]/ مصطفى النشار، فلسفة التاريخ، ط 01 ،(شركة الأمل، 2004)، ص76.

إذ سادت فكرة العناية الإلهيةمعظم الحضارات القديمة و آمنت جلّ الشعوب كالمصرين والبابليين* والآشوريين** والأكاديين*** ثم اليونان أن الإنسان جزء من الكون[1]. ولا يكتفي توينبي في نظريته على إبراز دور العناية الإلهية فقط في التاريخ،بل رأى أن هناك إمكانية للتلاقي بين العناية الإلهية و العقل الإنساني، فالتاريخ إجمالا هو تفاعل بين الله والإنسان، و هذا هو إنجاز الخطة الإلهية.

أما عن موضوع الثالث، المثل الأعلى للدولة: فلمس تأثيرا وامتداد واضح لأراء أغسطين في فكر توينبي، فأغسطين يقسم المدينة العالمية إلى مدينتين: مدينة الأرض التي تشمل معظم الإنسانية والنزاعات البشرية والتي يسود فيها الشر و مدينة السماء(أو مدينة الله) التي تشمل كل الذين يعيشون وفقا لمشيئة الله، وهي التي تستقر على حبه[2].

---

[1] /أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص122.

***البابليون:** أصلهم من القبائل العربية المأمورية القديمة ، نسبة إلى عاصمتهم "بابل" أي باب الإله. (ف.آ.بيلافيسكي، أسرار بابل، تر: رؤوف موسى جعفر الكاظمي، العراق، دار المأمون ، 2008، ص16) .

****الآشوريين:** من سلالة سام أب آشور، وهم من أقدم الشعوب التي اعتنقت المسيحية فهم وجدوا قبل المسيح ب7آلف سنة وهم سكان بلاد مابين النهرين العراق وسوريا وتركيا، و أصلهم من القبائل العربية المأمورية القديمة، نسبة إلى عاصمتهم "بابل" أي باب الإله. (ف.آ.بيلافيسكي، أسرار بابل، تر: رؤوف موسى جعفر الكاظمي، العراق، دار المأمون، 2008، ص16).

*****الأكاديون:** هم ساميو الأصل نزحوا من شبه الجزيرة العربية قام من بينهم الملك سرجون الأول والذي استولى على بلاد ملك الجهات.(عيد مرعى، اللسان الأكادي، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2012، ص ص 12،11).

[2] /رأفت غنمي الشيخ، فلسفة التاريخ، ص 79.

وفي هذا الرأي يتشابه توينبي بأوغسطين في ما يلاحظ في مستقبل المدنية الغربية الذي يعتقد أنه مرهون باتخاذ هذه المدنية لنفسها في المستقبل صورة الدولة العالمية القائمة على السلام العالمي، وتضم كافة المدنيات في مدينة واحدة لأنها بذلك ستتغلب على الصعوبات التي تواجهها.

ونلاحظ كذلك في أهم أفكار القديس أوغسطين التي وردت في كتابه (مدينة الله) و (الاعترافات) أنه رفض نظرية التعاقب الدوري للحضارات وهو مؤكدا على فردية الواقعة التاريخية وهي بذلك يستحيل تكرارها[1]، وهذا ما نجده ممتد عند توينبي الذي يرى أن لكل حضارة ظروفها ومكانها الخاص لقيامها. ويوضح أوغسطين أهمية الارتباط بين الدين والسياسة بقوله: "يجب أن تتم الوحدة بين الجانب الروحي ممثلا في الكنيسة وبين الجانب السياسي ممثلا في الدولة وأنه لما كانت الدولة تسعى إلى الخبرات المادية الدنيوية بينما تجعلها الكنيسة وسيلة لغاية روحية أسمى فأنه يجب أن تخضع الدولة للكنيسة حتى تحقق سعادتين سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة وتمكن الدولة الكنيسة من تحقيق أغراضها"[2]؛ فيتفق توينبي مع هذا الرأي بخصوص الدولة العالمية حيث أنهما يحبذان أن يحكمهما رجال دين المسيح العالمي ويرأسهما البابا راعي الكنيسة.

وبعد هذا كله نلاحظ أن مسار التاريخ كما صوره توينبي متأثر إلى حد بعيد بتصور أوغسطين وهذا التصور الديني لمسار التاريخ عند كليهما جعل بعض المؤرخين يرون أن توينبي قد وحّد بين التاريخ وعلم اللاهوت كما فعل من قبل أوغسطين .

[1]/ رأفت غنمي الشيخ، فلسفة التاريخ، ص83.

[2] / نقلا عن: أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 134.

أما عن تأثره بالفلاسفة والمؤرخين العرب نجد المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون.

يعتبر عبد الرحمان بن خلدون (1432_1906) من أهم الشخصيات الفكرية التي تأثر بها أرنولد توينبي، بوصفه أحد المفكرين الذين قدموا نظرية هامة في فلسفة التاريخ، وذلك من خلال مقدمته التي تعد بمثابة مرجع لكثير من علماء التاريخ و الفلاسفة، ولهذا استفادة توينبي كثيرا من دراسة ابن خلدون حتى أنه كتب عنه وذكره في مواضع عديدة في كتابه الهام "**دراسة التاريخ**" حيث قال أنه لم يستلهم أحدا من السابقين ولا يدانيه أحد من معاصريه بل لم يثر قبس الإلهام لدى تابعيه مع أنه في مقدمته للتاريخ العالمي قد تصور وصاغ فلسفة للتاريخ تعديلا بلا شك أعظم عمل من نوعه[1]. إذن فيما تأثر به توينبي؟

التقى توينبي مع ابن خلدون في أسباب نشوء الدولة حيث يرى أن هناك سببين هما:

السبب الأول: هو حفظ أمن المجتمع والتعاون مع بني جنسه في تلبيه حاجتيه وتقسيم أعماله وقضاء حاجاتهم الضرورية وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في قوله:" فالناس إنما يجتمعون للتعاون في تحصيل المعاش، ابتداء بما هو ضروري وبسيط قبل الحاجي الكمالي فمنهم من يستعمل الفلح، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان، ومن هؤلاء من ينتحل الصنائع ومنهم من ينتقل التجارة"[2].

كما يرى ابن خلدون أن الناس فيما بينهم مختلفون ومصالحهم مختلفة فيجب أن تكون هناك أداة أو رجل يحكم ويقوم المجتمع وتكون عندهم سلطة أكبر من سلطتهم من خلال قوله:"(...) يقع التنازع المفضي بين البشر إلى انقطاع النوع والمقاتلة، وهي تؤدي إلى الهرج وسفك وذهاب النفوس فاستحال

[1]/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 134.

[2]/ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة ،ج1،(بيروت، دار القلم، 1879)، ص 105.

بقاؤهم إلى فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم"[1]. فنلاحظ هنا أن ابن خلدون يشيد بضرورة وجود حاكم على البلاد وذلك لمراعاة مصالح الناس وفك الأذى على بعضهم البعض ونشر الأمن والاستقرار.

السبب الثاني: لنشوء الدولة يجب أن تتكون العصبية بين أفراد المجتمع التي عرفها قائلا:"هي الصلة بين بني البشر والنعرة على القربى وأهل الأرحام، أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود أن يحول بينه وبين ما يصله من المصاعب والمهالك.."[2]

فهو يرى أن العصبية تكمن بين الأقارب مع بعضهم البعض أو بين المجتمع فيما بينهم فهم عندما يصيب أحد من هؤلاء الأفراد مكروه تأخذهم عليه الرأفة يحس الأخ ما يصيبه، وكذلك إذا تعرض أحد منهم إلى أذى خارجي فتأخذهم عليه الغيرة فهم كلهم كتلة وحدة، وكذلك تعتبر العصبية بمثابة الوسيط بين وجهي العمران: فهي تتبدى بأجل مظاهرها في كونها لحمة الاجتماع في الأصل، في طور البداوة، في حين أن تراخيها عند بلوغ أعلى مراحل أطوار التحضر يبشر بالانحطاط، فقيام النظام السياسي والفوز بالر ئاسة والحفاظ عليها تبدو عصب السببية التاريخية[3] "

إذ يُ لاحظ أيضا تأثير توينبي بابن خلدون في تقسيم هذا الأخير للمجتمعات إلى: مجتمع بدوي أو مرحلة البداوة و الذي يتصف بمقومات حضارية بسيطة تقتصر على الضروري، ويتصفون بالشجاعة و الخير، وهم أقرب إلى الفطرة السليمة التي لم تفسدها بعض مظاهر الترف، فأهل البدو هم المنتحلون

[1]/ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة ،ج1، ص 112.

[2] / المرجع نفسه، ص112.

[3]/زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة ، ص ص 27 ،28.

للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأغنام و المجتمع الحضري الذي يسكن أهله في المدن، وهم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم، ويهتمون بالصناعةو التجارة، ويرى ابن خلدون أن البدو هم أصل الحضر، وأن أحوال الحضارة الناشئة ناتجة عن أحوال البداوة.

وعلى هذا النحو يقسم أرنولد توينبي المجتمعات إلى قسمين رئيسين، المجتمعات البدائية والمجتمعات الحضارية، ويعتقد أن أصل المجتمعات الحضارية، إنما يرجع إلى المجتمعات البدائية ويقرر بناءا على ذلك أن هناك ستة مجتمعات قد انبعثت من الحياة البدائية مباشرة وهي: المصرية والسومرية والمنوية* والمايانية** و الإندیانية والصينية[1].

ولكن رغم التقائهما في هاته الفكرة الأساسية إلا أنه يوجد اختلاف جوهري بينهما في نقطة هامة وهي:

أن تحول المجتمعات البدائية إلى الحضارية هو أسلوب الحياة الاجتماعية، وذلك من خلال ما ذكرناه آنفا من السمات الرئيسية التي يتصف بها كل مجتمع وكيفية الانتقال من حالة البداوة إلى حالة الحضر غير أن توينبي يرى أن الانتقال من البداوة إلى الحضاري هو الانتقال من الركود أو السكون إلى الحركة أو الانتقال من السلب إلى الإيجاب، وتوصل إلى أن نشوء الحضارات إنما يكون لتحدي الناس لمشاكلهم

[1]/زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة ، ص 27.

* **الحضارة المنوية:** قامت في جزيرة كريت في الألفين والثالث والثاني ق.م، و تعتبر أول حضارة أوروبية (عبد الفتاح المغربي، الفكر الشرقي القديم، ط01، القاهرة، مكتبة وهيبة، 1996،ص50).

** **الحضارة المايانية:** وهم هنود أمريكا الحمر، حضارتهم نشأت في الجزء الجنوبي من المكسيك في أمريكا الوسطى حوالي القرن4 ق.م وبلغت ذروتها حوالي 1000 للميلاد (عبد الفتاح المغربي، الفكر الشرقي القديم، ص 54).

ومصاعبهم الطبيعية و البشرية وكي تنتقل من مرحلة إلى مر حلة تتطلب إلى ذلك استجابة ناجحة؛ وهكذا نتوصل أن كل من توينبي وابن خلدون يتفقان حول فكرة نشأة المجتمعات ويختلفان في آلية الانتقال.[1]

وفي إجراءنا مقارنة بين آراء توينبي وابن خلدون نجد عدة نقاط تشابه تشير بأن أرنولد توينبي قد تأثر كثيرا بابن خلدون، ففي مقابل مفهوم الحضارة عند توينبي والذي يعده بمثابة حجر الأساس في منهجه التاريخي، سنجد ذلك في مفهوم الدولة عند ابن خلدون، اعتقادهما بالتعاقب الدوري للحضارات. فتوينبي يرى أن كل الحضارات السابقة قد مرت بمراحل متشابهة ما بين نشوء وتطور وانحلال، و ابن خلدون يرى أن الدولة تتشابه في أجيالها وأطوارها المختلفة وتقوم كل منها على أنقاض سابقتها وإقرارهما بأن الدين هو السبيل الوحيد لإنقاذ الحضارات من خطر الانهيار والانحلال. وبالاستبداد والتخلي عليه تنهار الحضارات.

[1] زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص،28.

وفي الوقت المعاصر نجد أيضا الفيلسوف والمؤرخ" أوزفالد اشبنجلر*" "Oswald Speugler"الذي تأثر به توينبي أيضاو لا نعني بذلك الأثر الإيجابي فحسب بل كذلك السلبي، إذ كان المحفز الأول له في التنبؤ بمصير الحضارة، ومن ثم دراسة التاريخ الحضاري العالمي كله. ولقد كان أرنولد توينبي من الأوائل الذين حصلوا على نسخة من كتاب "اشبنجلر" أفول الغرب1920 حيث شعر كم لو كانت الأسئلة التي شغلت باله والموضوعات التي يريد أن يعالجها مطروحة أمام فكر هذا المؤرخ حين وضع نظريته[1].

وتأثر توينبي بمنهجه الذي شمل نقد التاريخ الأوربي التقليدي الذي يضع الحضارة الغربية المسيحية في مركز التاريخ العالمي ويتجاهل الحضارات الأخرى، وقد عد توينبي أن الفكرة الخاطئة القائلة :"أن الغرب هو الحضارة" ناتجة عن ثلاث أوهام هي: حب الذات ووهم الشرق الراكد، ووهم التقدم كحركة تلتزم خطا مستقيما[2]؛و الفكرة الأساسية التي استلهمها توينبي من كتاب " أفول الغرب" هي فكرة التعاقب الدوري للحضارات وعلى الرغم انتقاده فكرة التعاقب الحيوي الحتمي للحضارات عند" اشبنجلر"، لأن الحضارة هي كيان من نوع لا يخضع لقوانين البيولوجية، إلا أن توينبي ينزلق من حيث لا يدري إلى المنحدر البيولوجي الذي سار عليه اشبنجلر، إذ شبه الحضارات " بالبذور التي تبذر و ينفصل بعضها عن بعضها الآخر

[1]/ أحمد محمود صبحي، فلسفة التاريخ، ص261.

* **أوزفالد اشبنجلر**: فيلسوف ألماني ولد في مدينة بلاكنبرغ (1880ـ 1936)، درس في ثانوية هالhalle ثم جامعة برلين، من أشهر مؤلفاته"تدهور الغرب بجزئيه".(أحمد محمود صبحي ، فلسفة التاريخ ،ص243).

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص21.

ولكل بذرة مصيرها الخاص،وا ن كانت تشترك جميعها في النوع، كما يتولى بذر واحد يأمل جني المحصول واحد"[1].

ولا نعتقد بأن هناك فرق بين تشبيه اشبنجلر للحضارات باليرقات التي تولد وتنمو وتزدهر وتموت وبين تشبيه توينبي للحضارات بالبذور التي تبذر في الأرض وتنبت و تثمر وتموت؛ ففي الواقع هناك نقاط كثيرة يتفق بها توينبي معشبنجلر وا ن كان لا يقر بذلك، إذ كان "اشبنجلر" يرى أن الحضارة الغربية قد اجتازت مرحلة الخلق والإبداع إلى مرحلة المدنية الآلية، إذ سكنت الصورة الحيوية التي كانت تشحنها بالطاقة الخلاقة، ولقد أصبح كل شيء خاضعا لمنطق العلة والمعلول واستحال الكيف إلى الكم، وسادت الآلية البحتة و اللادينية، ولا نعتقد بأن توينبي قد قال غير ذلك في تفسيره تاريخ الحضارة الغربية في الواقع.

لقد كان اشبنجلر أعمق فلسفيا من توينبي، لكن الصورة التي رسمها توينبي للتاريخ كانت أكثر وأقل تشاؤماإذ ر أى أن المستقبل مفتوحو أن التاريخ الماضي لا ينبئ بصفة قطعية بما سوف يكون عليه الغد. ومع ذلك كله فهو لا يتفق معه تماما إذ يعده مذهبيا أكثر من اللازم ومؤمنا بالحتمية بإسراف، والواقع أن الخلاف بين آرائهما هو اختلاف بين "فيلسوف يؤرخ وبين مؤرخ يتفلسف"[2] .

ها هو توينبي يستند إلى أفكار مؤرخ آخر الذي يعتبره الأب الروحي له وهو المفكر "نيقولاي دانيليفسكي" الذي التقى معه في فكرته الرئيسية حول الحضارة، واختلف معه في العديد من الأفكار الأخرى. وفي هذا المقام نعرف باختصار بهذه الشخصية:

[1]/ أرلوند توينبيمختصر دراسة التاريخ،ج1، ص 405.

[2]/ أحمد محمود صبحي، فلسفة التاريخ، ص262.

نيقولاي دانيليفسكي" **Nikolaï Danilevski**" (1822ـ1885) إذ وضع عدة دراسات حول موضوعات واسعة ومتشعبة فيما يخص موضوع الحضارة وهذا في عام 1869، ونشر مجلة (زرايا) سلسلة من المقالات بعنوان روسيا و أوروبا[1]. والسؤال الذي يتبادر هنا لماذا يعتبر بالذات دانيليفسكي رائدا روحيا لأرنولد توينبي؟

وللإجابة على هذا السؤال؛ نذهب إلى المبدأ الأساسي والذي استند عليه دانيليفسكي في دراسته للحضارات، حيث يرى أن (الحضارة هي الوحدة الحقيقية للدراسة التاريخية)، وبهذا امتدت هذه الفكرة إلى فكر توينبي واعتبرها قاعدة أساسية في دراسة موضوع الحضارة، فتوينبي لا يرى أن المجتمع والإنسان أو الأمة ليسو ا الوحدة البسيطة الأساسية لدراسة التاريخ، بل على دارس التاريخ أن يدرس الحضارة بأكملها.

كما يتفق توينبي و نيقولاي دانيليفسكي في رفض الفكرة التي ذهب إليها الكثير من المؤرخين والتي تقول بأن هناك "حضارة واحدة فقط وهي الحضارة الغربية أما سواها فلا يوجد"و هنا يقر دانيليفسكي برفضه لهذه الفكرة قائلا:" ليس هناك حضارة واحدة،وا ٍنما هناك طرز من الحضارات لكل منها خصائصها ومميزاتها، والتاريخ البشري في مجموعه لا يسير في خط مستقيم يتبع اتجاها واحدا ونزعة بذاتها وا ٍنما هو في الحقيقة مكون من حركات مختلفة الاتجاهات تتبع خطوطا متباينة وتكشف عن وجهات أو قيم كثيرة خلال الطرز المختلفة من الحضارات ولكل حضارة قيمها الخاصة"[2].إذ يصرح بوجود حضارة أخرى تفند مركزية الحضارة الغربية وهي الحضارة الروسية التي فصلها عن الغربية الأوربية ووضعها ضد الحضارة الغربية قائلا: " ليست الحضارة الأوربية هي الحضارة العالمية بأي وجه من

[1]/ Donaldm, Borchert, Encyclopedia of philosophy, America,Thomsonition,2nd edition, 1934,p55.

[2]/زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص 47.

الوجود(...) وقد نشأت حضارات كثيرة خارج أوروبا، وهذا ما فعله مع الروس لأن روسيا لا تتبع أوروبا فهي ليست جزءا منها ولا فرعا من الحضارة الأوروبية "[1].

لكن توينبي اعتبر روسيا هي جزء من الحضارة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية التي تضم (روسيا ودول البلقان)، وأنها هي والحضارة المسيحية الغربية التي تضم أمريكا وأوربا الغربية قد تولدتا عن الدين المسيحي.

واختلف توينبي مع نيقولاي دانيليفسكي في انهيار الحضارة حيث يصرح توينبي أن اندثار أي حضارة ما يحمل في طياته ولادة حضارة أخرى، في علاقة الأبوة والبنوة و أن كل حضارة لا تزول بل تقوم على أنقاضها حضارة أخرى، أما نيقولاي دانيليفسكي يرى أنه عندما تندثر حضارة تكون نهاية مطلقة وأن أي حضارة تكون وليدة نفسها ولا تقوم على أنقاض حضارات أخرى .

ولكن ليست المؤثرات الفكرية التي صاغت فكر توينبي ورسمته تقتصر فقط على هؤلاء، و إنما تأثر أيضا بشخصيات أخرى مثل "جورج هيجل" الفيلسوف الألماني (1770_1831) وكذا المفكر "تيجارت" الذي أخذ عنه فكرة انتفع بها فيما بعد في دراسته، وهي أنه لكي نفهم تاريخ حضارة ما، علينا أولا أن نقرأ عنها في توسع حتى تهتدي إلى روحها ولبابها وهذا هو مفتاح فهمها، فإذا كان في يدنا هذا المفتاح فإننا نستطيع أن نقرأ تاريخ هذه الأمة وتجربتها السياسية والحضارية فنجد أنفسنا قادرين على إدراك حقائق هذا التاريخ ومعرفة مواضع قوته وضعفه. واستفاد توينبي كذلك من دراسة علم النفس على مذهب "يونج"

[1]/ أرلوند توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق، تر: لمعي المطيعي، ط 3، (القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1990)، ص ص 13، 14.

Yung أحد تلاميذ "سيغموند فرويد"،و هو أقدر من درس موضوع "نفسية" الجماعات، وهي تختلف كما هو معروف عن نفسية الأفراد[1].

[1]/ حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص ص179، 180.

الفصـل الثـانـي:تأسيس أرلوند توينبي لنظرية التحدي والاستجابة.

المبحث الأول: مفـــهـوم نـظـريـة الـتحـدي والاسـتـجابـة.

المبحث الثاني: أنـواع الـتـحـديـــات والاســـتـــجابـــات.

المبحث الثالث:الجانب الإيجابي والجانب السلبي من النظرية.

تأسيس أرلوند توينبي لنظرية التحدي والاستجابة

لقد تناولنا في هذا الفصل نظرية التحدي و الاستجابة حيثعر ّجنا على تحديد مفهوم كلا المصطلحين، لأن لحظة ضبط المفاهيم تشكل اللحظة العلمية الأبرز القادرة على تجاوز الخلط المفاهيمي، فالجهاز المفهومي بالمعنى الابستمولوجي يبقى الركيزة الأساسية لأي شرعية علميةثم تدر ّجنا بالأفكار إلى أنواع التحديات والاستجابات من ناجحة إلى فاشلة، يليها بعد ذلك الجانب الإيجابي والجانب السلبي من النظرية من أجل التمييز بين الفعل ورد الفعل في تأسيسه لأفكار ونقده لأخرى. وهو ما سيتضح جليا؛

المبحث الأول: مفهوم نظرية التحدي والاستجابة:

على الرغم من أننا لم نعثر على تعريف واضح لمفهوم "التحدي والاستجابة"، لا عند توينبي ولا عند من درسوه؛ لكننا نسلط الضوء للكشف عن الدلالات النظرية والنفسية التي ينطوي عليها هذا المفهوم المركب. يعتبر الدارسين للنظرية التحدي والاستجابة لتوينبي، هي العامل الحقيقي المتحكم في قيام الحضارات وارتقائها، ثم سقوطها؛ فمفهوم "التحدي والاستجابة" هو مفهوم مزدوج اللفظ والمعنى والوظيفة[1] فمن حيث اللفظ، يشير لفظ التحدي إلى وجود: واقع، موضوع، مشكلة، موقف، أزمة، خطر، تهديد، سؤال، لغز، وغير ذلك من المعاني المتقاربة و المتشابهة التي تدل على خارجية التحدي من حيث أنه

[1]/ زياد عبد الكريم النجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص51.

وجود قائم خارج الذات التي تستجيب له، وبهذا المعنى يرمز للاستجابة إلى: الرد الجواب، المجابهة، الفعل، التجاوز، التمرد، التخلص وغير ذلك من المعاني[1].

ويعرف "اندريه لالاند" في موسوعته مصطلح "**الاستجابة** " **réaction**: "فعل كائن مستثار بفعل يعنيه في الفيزيولوجيا وفي النفسانيات خصوصا، فعل الجسم العضوي ردا على إثارة، لا يقال عموما إلا على الأفعال الممكن إدراكها من الخارج، والمؤثرة في الوظائف العلائقية للكائن المعني ولكن يتعين نظريا عاما يبدو استدخال كل المؤثرات القرينة المحددة بمثير ما،حتى وإن لم تكن مؤثرات ظاهرة (مثلا الإفرازات الداخلية أو حتى المحابطات) وتصنيفها في نطاق فكرة الاستجابة أو رد الفعل، ولا يستثنى من ذلك سوى تغيرات المر اكز التي تحدثها الإشارة مباشرة" [2]. وهنا "لالاند"يرى أن الاستجابة هي ر دة فعل سواء كان هذا الفعل شكليا أو حتى نفسيا فهي متعلقة بفعل استثارها لتنتج الاستجابة، ومن هنا نستطيع القول بأن الاستجابة هي الذات والتحدي أو (الفعل) هو الموضوع.

ولذلك فقد كانت فكرة "التحدي والاستجابة" في مدلولها البسيط والواقعي المباشر، هي التعبير الأمثل عن الحالة الطبيعية لحياة الكائن الحي عامة والإنسان على نحو أكثر نضجا، إنها تعبير عن رد فعل الكائن الحي على العالم المحسوس، رد فعل والتكيف بالتطور،و التطور بالتكيف، وحل لمشكلة وتجاوز لأزمة واتخاذ موقف يزيده قوة في مواقع محمية ويزيده حماية في صراعه(الإنسان)الدائم مع الطبيعة

[1]/ جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أرنولد توينبي، رسالة ماجستير، إشراف عبد المجيد عمراني،(باتنة، كلية العلوم الإنسانية، 2013/2012)،ص 36.

[2]/ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، المجلد 2، ط1، (بيروت، منشورات عويدات،2001)، ص1174.

والمجتمع نفسه، ويعني كذلك التحدي وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان في بناء حضارته، على قدر مواجهة الإنسان لهذه الظروف تكون استجابته إما ناجحة تتغلب على هذه المصاعب أو استجابة فاشـــلة، إذا عجز عن التغلب على هذه المصاعب[1]، حيث يقول توينبي "إن الظروف الصعبة هي التي تستثير في الأمم قيام الحضارات"[2]. ويؤمن توينبي أنه كلما ازداد التحدي تصاعدت قوة الاستجابة حتى تصل بأصحابها ما يسميه باسم "**الوسيلة الذهبية**"[3]، والتي تأتي من خلال سلسلة الاستجابات الناجحة وشبه الناجحة والفاشلة في مواجهة التحديات التي تعترض تاريخ النهضة والحضارة، إلى أن تتوصل ويهتدي المجتمع إلى الحل الأمثل الذي يؤدي بنا إلى تحقيقهما، فلقد ضرب توينبي مثال: وقال أنه عند اشتداد موجات التحدي المتمثلة في مواكب غزو الإسكندر الأكبر* والقياصرة الرومان من بعده أخذت الاستجابات تعبر عن نفسها الواحدة بعد الأخرى في شكل الزرادشتية** الفارسية ثم مذاهب الهرطقة من نسطورية*** و موفيزية أصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح[4].

---

[1]/ رأفت غنمي الشيخ، في فلسفة التاريخ، ص179.

[2]/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص260.

[3]/ جاسم سلطان، أداة فلسفة التاريخ . سلسلة أدوات القادة . (د، ت)، ص50.

[4]/ رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، ص 194.

* **الاسكندر الأكبر**: 356–323 قم يُعد تاريخيا من أعظم القادة العسكريين خلال عصور التاريخ، حيث استطاع خلال عشر سنوات 324.334ق.م بجيش قوامه 35.000 جنديا أن يصل إلى الهندوا ن يحطم الإمبراطورية الفارسية ومن ثم إلى تكوين إمبراطورية عرفها التاريخ.(أرلوند توينبي، تاريخ الحضارة الهللينية، ص 136.)

** **الزرادشتية**: نسبة إلى زرادشت المولود 660ق م بأذربجان يؤمن أصحابها بوجود إلهين إله الخير، و إله الشر.(آرثر كرسيتنسن، إيران في عهد الساسانيين، تر: يحي الخشاب، بيروت، دار النهضة، ص23).

*** **النسطورية**: هم طائفة ينتمون إلى نسطور (451.380م) تؤمن بأن المسيح له طبيعتين وأقنومين ابن الله والآخر ابن الإنسان.(آرثر كرسيتنسن، إيران في عهد الساسانيين، ص26).

ويرى توينبي أن التحدي الأمثل هو ما يشتمل على كمية الحركة التي تحمل الطرف المتحدي خطو ة أبعد من استجابة ناجحة بمفردها، تحمله من مرحلة استكمال استجابة إلى مرحلة صراع جديد، من مشكلة واحدة حلت إلى مواجهة أخرى؛ أي من حالة الين (التي تعني الركود) إلى مرحلة (اليانج) (وهو قانون يدعى في الصين بالين واليانج)[1].

وا ذا كانت شهرة توينبي التي تفجرت على نطاق واسع 1945تعود في جزء منها إلى قوله بنظرية التحدي والاستجابة، فهي شهرة قامت على سوء فهم أكثر منها على الواقع؛ ونقصد بذلك الاعتقاد الذي ساد بأن توينبي هو مبدع نظرية التحدي والاستجابة، على أن الحقيقة التاريخية تشير إلى أن فكرة التحدي والاستجابة تعود في جذورها الأصلية إلى "الفكر الصيني" إذ وردت في كتابات "أي جنح أو" والتي تعني "التغيرات" للفيلسوف الصيني "ون وانج"، فهو بذلك يعيد أصولها إلى حكمة الصين القديمة، إذ يعترف بأن حكماء الصين بخيالهم الخصب هم أول من أطلق على هذا الترديد المتعاقب بين الركود و اليانج حيث يقول توينبي: "يبدو أن نواة الحرف الصيني الذي يعبر عن الين تمثل سحبا قاتمة ملتفة تحجب الشمس على أن نواة الحرف الذي يعبر عن اليانج، تمثل قرص الشمس خاليا من السحب وناشرا أشعته، وفي العبارة الصينية يذكر الين قبل اليانج على الدوام"[2].

[1]/ رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، ص206.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج4، ص86.

ويقوم الجانب الآخر من سوء الفهم هذا فيما اعتقده توينبي قد امتلك بنظرية التحدي والاستجابة "المفتاح السحري"[1]، الذي يفتح جميع الأبواب إذ حاول أن يفسر بهذا " المفتاح" كل ظواهر التاريخ من نشوء الحضارات، ونموها، وازدهارها، و حتى تدهورها وانحلالها وسقوطها.

ومن هنا نرى توينبي أنه قد استخدم هذه النظرية في دلالات مختلفة وصيغ متعددة وتم تطبيقها على ظواهر كثيرة، مما أفقده الاتساق المنهجي والدقة والوضوح المعرفي، ومن الاستخدامات المتعددة لمفهوم التحدي والاستجابة، و يمكن الإشارة إلى: السكون والحركة، والانسحاب والعودة ،العزلة والرجوع، التجمع والتبدد، السقوط أو النهوض ....الخ ومن هذا كله نستخلص مفهوم التحدي والاستجابة :

يقصد توينبي بالتحدي والاستجابة " قانون تحول المجتمعات من حالة البدائية المتوحشة إلى حالة الحضارية؛ أي التحول من الركود إلى الحركة الدافعة[2]. و تتخذ علاقة التحدي بالاستجابة إحدى الصور الثلاثة التالية :

1/ إن قصور التحدي يجعل الطرف الآخر عاجز تماما عن استجابة ناجحة.

2/ أن يحطم التحدي البالغ الشدة روح الطرف الأخر.

3/ أن يصل التحدي إلى درجة معقولة، تستثير الطاقات المبدعة في استجاباتها لذلك التحدي[3].

---

[1]/ حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص 310.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ،ج1، ص 85.

[3]/ رأفت الشيخ، تفسير التاريخ، ص 192.

المبحث الثاني: أنواع التحديات و أنواع الاستجابات

تعد "نظرية التحدي والاستجابة" من أهم النظريات المعاصرة في فلسفة التاريخ، عند "أرلوند توينبي" وهو ما يجعل آراءه أكثر حيوية وأهمية من غيره من المؤرخين؛ ولهذا أعطى للتحدي أنواع وللاستجابة أنواع أخرى نلخصها فيما يلي:

أولا: أنواع التحديات:

1/ التحديات الأسطورية: يقول توينبي:" ليس العامل الذي نسعى للتعرف عليه شيئا مفردا ولأنه متعددا وهو ليس وحده، ولكنه علاقة وعلينا أن نختار في تصور هذه العلاقة بين قوتين غير بشريتين، أو كالتقاء بين شخصين فوق مستو ى البشر، فلنحاول ترويض أذهاننا على ثاني هذين المعنيين لعله يقودنا إلى النور"[1]، ويعطي توينبي مثالا عن ذلك ففي العهد الجديد يتحدى إبليس يسوع وتكون للإنسانية قصة الخلاص؛ أي أن الدافع الذي يؤدي إلى تحويل حالة الين التامة إلى نشاط اليانج الجديدة إنما يصدر عن تدخل إبليس في عالم الله، وهذه الصورة الأسطورية خير ما يسمح بوصف هذا الحدث وصفا رمزيا بعيدا عن العلم والمنطق؛ وهذا ما يدل على أن ما أوحى بفكرة التحدي و الاستجابة هو مطالعته للعهد القديم (التوراة)، إذ تسيطر عليها فكرة شاملة واحدة مدارها هو أن التاريخ بمجمله مجموعة من الأفعال يبرز فيه الله تحديا للبشر أفرادا وجماعاتولهذا فإن توينبي لم يبلور هذه الفكرة بطريقة عقائدية بل جر َدها تماما من كل ما هو ديني اعتقادي إلى رمزية واضحة التأويل، ولعل أفضل دليل على ذلك هو أسطورة " فاوست" حيث يفسر توينبي الحوار بين الرب والشيطان(مفيستوفيليس) في هذه الأسطورة بأنه يرمز إلى

[1]/أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص 102.

الخروج من الجنة نتيجة قبول تحد يهدف إلى ترك السكون إلى الشروع في عملية التمايز الجديدة يشوبها الألم والمخاطرة؛ أي الانتقال من السماء(الجنة) إلى الأرض(الواقع)، أو بعبارة أخرى الطرد من جنة عدن إلى عالم غير صديق، فهذه تجربة ناجمة عن قبول تحدي الشيطان ممثلا في صورة الحية، ونلمس هذا التحدي أيضا حتى في قصص القرآن عندما تحدَ قوم موسى الدعوة إلى الإسلام باتخاذهم عجل لعبادته، بدل الله تعالى باعتبار أن العجل كان مقدسا في بلاد الرافدين والهضبة الإيرانية[1]، ولكن هذا يعد تحد فاشل ولم ينجع إذ يقول الله تعالى:"واتخذ قوم موسى من بعده من حُليّهم عجلا جسدا له خُوار ألم يروا أنه لا يُكلمهم ولا يُهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين"[2]

2/ التحديات الخاصة بالبيئة الطبيعية:

إن تحديات البيئة الطبيعية القاسية والظروف الطبيعية الشاقة التي تواجه الإنسان، تدفعه إلى تغيير موطنه أو تعديل بيئته، وذلك للاستفادة من خيراتها في الحفاظ على وجوده أولا ولبناء حضارته فيها ثانيا؛ ويقسم توينبي تحديات البيئة إلى هما:

1/ **حافز البلاد الشاقة(الأرض الصعبة):** وهي الأرض الوعرة أو البيئة المناخية القاسية، ويورد توينبي مثالا عن ذلك: دلتا النيل التي كانت مغطاة بالمستنقعات و الأدغال،و أن الإنسان المصري القديم هو الذي استصلحها وعدَ لها ليقيم حضارته، ولذلك رأى توينبي أن الحضارة المصرية هي هبة المصريين وليست هبة النيل كما قال "هيرودوت"، ولكن ليس وجود هذا الحافز شرطا كافيا لقيام حضارة، فهو تحد

[1]/ سهيل زكار، التوراة ، ط01، (بيروت، دار قتيبة، 2007)، ص 28.
[2]/ سورة الأعراف، الآية: 148.

قاس أكبر من قدرة المجتمع ولا يستطيع الإنسان تطوير آليات التغلب عليه مثل شعب الإسكيمو وتحدي الثلوج المستمرة، فإنهم لم يتمكنوا من إبداع شيء يخلصهم من هذا، فاستمرت حياتهم البدائية حتى يومنا هذا[1].

2/**حافز الأرض الجديدة(الأرض البكر)**: ويرى توينبي أن تاريخ معظم الحضارات يبين أن ذروة ازدهارها كان في تلك المناطق الجديدة التي لم تكن من قبل موطنا لأحد من الناس، وذلك لأنها تبرز استجابات أشد حيوية من الأرض التي سبق اقتحامها من قبل، وشغلها مقيمون متحضرون من قبل مثل الحضارة الهندية* بقوله:" بتحولنا للحضارة الهندية*، يمكننا أن نعين المصادر المحلية لعناصر إبداع جديدة في الحياة الهندية، وبخاصة في الدين الذي كان دائما مركزا للنشاط في المجتمع الهندي"[2].

وما يمكن أن نخلص إليه هو أن الأرض الشاقة والموطن الجديد يشكلان تحديين يستثيران قوى الإبداع في الإنسان، أما الذين عزفوا عن تغيير موطنهم أو تعديل طريقة معيشتهم، فإن الانقراض سيكون جزاء إخفاقهم في تحقيق الاستجابة الناجحة للتحديات الطبيعية التي تواجههم.

---

[1]/ جاسم سلطان، أداة فلسفة التاريخ، ص44.

[2]/ إسماعيل محمد الزيود، إرهاصات النهضة في المجتمع العربي ـ دراسة سوسيولوجيه في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، المجلد 04، العدد01، (دراسات العلوم الإنسانية و الاجتماعية، 2013)، ص05.

* **الحضارة الهندية**: تقع الهند في الجزء الجنوبي من آسيا، وتسمى (بارات) وهو الاسم القديم للهند، وعاصمتها نيودلهي. وقد عرفت الهند الحضارة منذ الألف الثالث قبل الميلاد(جون بولر، الفكر الشرقي القديم، تر: كامل حسين، العدد199، عالم المعرفة، 1995، ص25).

3/التحديات الخاصة بالبيئة البشرية: ويقسمها إلى ثلاثة أقسام ويسميها حوافز، لأنها تحفز الإنسان على الاستجابة لها وهي كالتالي:

01/ حافز الضربات: والمقصود بالضربات الكوارث الحربية أو الهزائم العسكرية الساحقة الفجائية ويرى توينبي أنها كفيلة باستثارة الجانب المهزوم لترتيب بيئته من الداخل، والاستعداد لتحقيق استجابة مناسبة يحقق من خلالها النصر المطلوب، أو يمكن أن نسميه تحدَ لاَ ق يستفز طاقات الإنسان، ولكنه قادر على تطوير آليات للتغلب عليه " مثل ما حدث في سنة 05أوت 1945 حيث استفاق العالم على أبشع كارثة شاهدتها البشرية في تاريخ حروبها الطويل؛ حين ألقيت قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما فدمرت المدينة؛ وبعد أربعة أيام لحقتها مدينة ناكازاكي نفس المصير[1].

02/ حافز الضغوط: والمقصود بها تلك الضغوط الخارجية أو تلك التحديات التي تأتي من الخارج، ويرى توينبي أن الشعوب التي تشغل مواقع حدود وتتعرض لعدوان متصل،تُظهر استطالة أشد إشراقا من جيرانها أصحاب المواقع المحمية، مثل العثمانيون الواقعون تحت ضغط حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية في موضع أفضل من القرمانيين القاطنين شرقهم.

03/ حافز النقم: ويشير هذا الحافز إلى ذلك التحدي الداخلي الذي يحدث في جزء صغير فقط من كيان المجتمع إذ يصاب هذا الجزء بفقدان القدرة على مواجهة ذلك التحدي ونجد هذه المجموعة البشرية تتوجه بقدرتها لمجال آخر وتنشط فيه وتبدع،ولعلَ الحوادث التاريخية أكبر دليل على ذلك لأنها تطلعنا على

[1]/ محمد زياد كبة، القنبلة في التاريخ، مجلة الفيصل السعودية ،العدد 100، (دار الفيصل الثقافية، جويلية 1985) ص 134.

طوائف وشعوب أصابها النقم عانت طوال قرون صنوفا مختلفة من النقم؛ مارستها عليها طوائف وشعوب كانت تسيطر عليها، تستجيب بصفة عامة الشعوب التي أصابها النقم لتحدي الحرمان من المشاركة في فرص مزايا معينة،بإبراز طاقة استثنائية وا إظهار أهلية غير عادية في الاتجاهات المفتوحة يقول: " وكان الرق أثقل تلك النقم،بيد أنه انبعث خلال القر نين السابقين للميلاد من حشود الأرقاء الذين استجلبوا إلى إيطاليا من الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط طبقة من المعتوقين أحرزوا نفوذا يعمل له حساب، ومن عالم الرق هذا، ظهرت العقائد الدينية الجديدة البروليتاريا* الداخلية وكانت المسيحية من بينها"[1].

إذا إن تحدي الوسط البشري يستثير لدى المجتمع الذي يواجه التحدي الطاقة الإبداعية الكامنة فيه فإذا قامت باستجابة ناجحة، أدى ذلك إلى مولد حضارة جديدة، وتحدي الوسط البشري يتمثل في العدوان الخارجي من دولة مجاورة أو جماعة بشرية أو قد يتخذ العدوان شكل غزو خارجي، وقد يكون تهديد مستمر يشكل قوة ضاغطة على المجتمع، فالغزو المتكرر والضغوط المستمرة التي كانت تمارسها الدولة الرومانية الشرقية على منطقة بلاد الشام أدى فيما بعد إلى اعتناق سكان المنطقة الإسلام. وذلك طبعا بعد ظهوره بفترة زمنية قصير ة، وكانت النتيجة طرد الغزو الروماني وقيام الحضارة الإسلامية؛ وأصبح مجتمع بلاد الشام جزءا أساسيا منها؛ ويمكننا توضيح أنواع هذه التحديات بالمخطط التالي:[2]

---

[1]/أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج4، ص262.

* **البروليتاريا:** وهي الطبقة التي تعيش كليا على عملها ولا تحصل على أي نوع من أرباح رأس المال، وتتوقف معيشتها على وجودها في ذاتها وعلى حاجة المجتمع إلى عملها "وهي الطبقة الكادحة في زمننا هذا ".(كريس هارمان،النبي والبرولتاريا، تر مركز الدراسات الاشتراكية، مصر ،1996، ص7).

[2]/ جاسم سلطان، أداة الفلسفة، ص45.

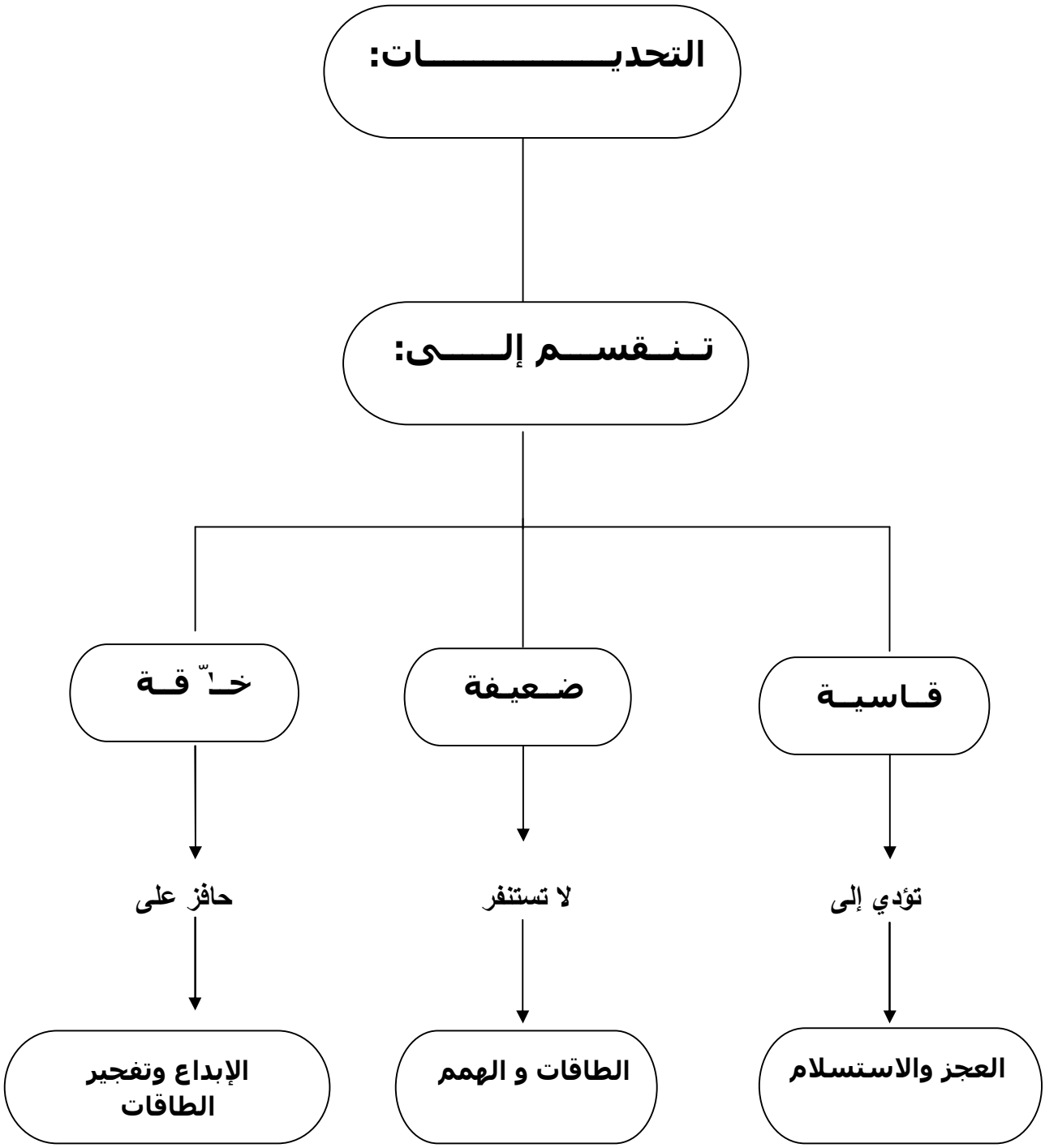
التحديـــــــــــات:
تـــنـــقســـم إلـــــى:
قـاسيـة
ضـعيـفة
خـلّ قـة
تؤدي إلى
لا تستنفر
حافز على
العجز والاستسلام
الطاقات و الهمم
الإبداع وتفجير الطاقات

ثانيا: أنواع الاستجابات

يؤكد توينبي أن العلاقة بين مستوى التحديات ومستوى الاستجابات علاقة طردية، ولهذا يطرح سؤاله قائلا: هل بإمكاننا أن نقرر بكل بساطة أنه كلما اشتدت صرامة التحدي كلما ارتقى مستوى الاستجابة؟ أو هل ثمةتحدّ أشد من أن يستثير استجابة؟[1] فكلما ازدادت التحديات كلما تصاعدت قوة الاستجابات حتى تصل بأصحابها إلى ما يسمى "**الوسيلة الذهبية**"[2] أو ما يسميها " **الوسط الذهبي**" و التي تأتي من خلال سلسلة من لاستجابات الناجحة و الشبه ناجحة والفاشلة في مواجهة التحديات التي تعترض طريق النهضة و الحضارة إلى أن تصلالأمة إلى الحل النموذجي أو السبيل المستقيم الذي يقودها بأمان لتحقيق الر ُ قي و الحضارة التي كانت مسعى الجميع، هذه الوسيلة التي تنقل المشروع نقلة نوعية، ويعطي مثالا عن ذلك:" بالتأكيد إن بعض التحديات التي دحرت فريقا أو أكثر ممن واجهتهم،قد استثار ت في النهايـة استجابة منتصرة، فالتحدي الذي مثّله امتداد نطاق الحضارة الهللينية*، كان قويا للغاية على مقدرة استجابة

---

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، تر: فؤاد محمد شبل، ج03، ط02، (القاهرة، المركز القومي، 2011) ص262.

[2]/ جاسم سلطان، أداة الفلسفة، ص 50.

* **الحضارة الهللينية**وهي مستمدة من كلمة هلين وهي الاسم العراقي الذي يطلقه اليونانيين على أنفسهم بجدهم الأسطوري hellen وببلادهم التي عرفت باسم هيلاس hellas أو الهيلاد، ويمتد تاريخ هذه الحضارة من بداية الألف الأول ق م وينتهي بظهور الكسندر المقدوني منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.(عبد اللطيف سليمان، الفن الإغريقي، الجامعة الدولية الخاصة للعلوم و التكنولوجيا، ص141).

الكلت، بينما استجاب له بنجاح خلفاؤهم التيوتون*، واستثارت" المداخلة الهللينية" في العالم السوري سلسلة من الاستجابات السورية، الزرادشتية، اليهودية، (حركة المكابين)**، النسطورية ،المينوفيستية لكن نجحت الاستجابة ممثلة في ظهور الإسلام"[1] ، ولذلك يمكننا تقسيم الاستجابات حسب نتائجها إلى نوعين:

01/ استجابة فاشلة: وهي التي تؤدي إلى التخلّف، وهي حالة لها أغراضها الداخلية متمثلة في الفوضى و التخبط ولها أغراضها الخارجية، المتمثلة في اعتماد الأمة على الغير في مأكلها ومشربها وحمايتها، بل وحتى في فكرها ونظامها، إنها حالة من الاستبلا للآخر وهي حالة لها كل مقو ّمات" القابلية للاستعمار"على حد ّ تعبير ـ مالك بن نبي ـ بقوله:" بأن معامل القابلية للاستعمار يؤثر في حياة الفرد في جميع أطوارها، ، إذ لا يمد المجتمع بما يقويه جسده وينمي فكره. "[2]، ويضرب توينبي مثالا على الاستجابة الفاشلة، بأنه لا يتأتى التدليل على أن التحديات يمكن أن تتطرف في صرامتها؛ بمعنى أن التحد ّي الأقصى لن يُبرز دائما الاستجابة المُثلى، ومصداقا لذلك استجاب مهاجروا الفايكنج*** من النرويج استجابة رائعة لتحدي بيئة اسلندا الصارمة، لكنها انهارت أمام تحدي جرينلندا، وكانت بيئة"

---

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج4، ص 263.

[2]/ مالك بن نبي، شروط النهضة . مشكلات الحضارة . تر: عبد الصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر، 1986)، ص147.

* **التيوتون:** يطلق على الشعوب الجرمانية، وهم من أوائل الجرمان الذين هددوا السلطة في روما القديمة (آرثر كر سيتتسن، إيران في عهد الساسانيين ص29).

__حركة المكابين:__ نشأت في لندن سنة 1891 وكانت لتجميع اليهود ومن أهم أهدافها عودة المنظمة إلى أرضهم الموعودة في فلسطين أرض صهيون.(نياقة الأنبا إيسوزوس، تفسير سفر المكابين الأول، مركز دلتا للطباعة ،2003،ص ص 36,35).

*** **الفايكنج:** قوم اشتهروا بركوب البحر والقرصنة، وقد ظهروا وسيطروا على شمال أوروبا في القرون الوسطى وينحدرون من القوم الجرماني عاشو ا في شمال غرب أوروبا(أرنولد توينبي، مختصر التاريخ،ج4، ص264).

ماساشوستس"التي استثارت استجابة طيبة، لكن لابرادور التي أبرزت تحديا أشد قسوة من تحدي ماساشوستس، لم يستطع المستعمرون الأوربيون الاستجابة لها"[1].

02/استجابة ناجحة: ويقسمها توينبي إلى ثلاث أقسام وهي:

أ/ **الصحوة:** وهي أولى مراحل انقشاع سحب التبلد الذهني، وسنستخدمها هنا لوصف المرحلة الأولى في البحث الحضاري، ومن أعراضها الإيجابية: الإحساس بالذات والهوية، أم عن أعراضها السلبية: عدم تمتع أشكالها التنفيذية الانطلاقية بالرشد الكامل، فالصحوة هي إرهاصات لحالة جديدة تشوب مجتمع ما، حيث تكون واضحة أحيانا ومشوشة أحيانا أخرى، كأنها صرخات الجنين الأولى.

ب/ أما اليقظة: فهي حالة تنقشع فيها استخدام العقل، ويستطيع فيه المرء الالتفات إلى نفسه ومعرفة ما يريده من عالمه المحيط به، بحيث ينظم علاقته مع البشر فمن أعراضها الايجابية:الرشد، الوعي و العمل المخطط المدروس.

جـ/ أما النهضةويقصد به التصورات وا إدراك العالم الخارجي ومجموعة المبادئ و الصواب والخطأ و المشاعر والأحاسيس، إذ يندفع الإنسان في عالم الأفكار متحررا من كل القيود التي تحبسه عن ممارسة نشاطه في جميع الميادين؛ أما عن أعراضها الإيجابية، فإنها توقظ في الإنسان لذة العمل وحرارته، إذ في هذه المرحلة يظهر الإبداع والتميز[2].

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج4، ص 263.

[2]/ جاسم سلطان، أداة الفلسفة، ص 54.

ج/ وأخيرا تأتي الحضارة: فهي حالة من البناء المنشود في عالم الواقع تكون في نموذج فكري وعالم علاقات وسلوك متقدم؛ أي الحالة الاجتماعية والمدنية والعلاقات المنظمة للأفراد والمجتمعات؛ فهو علم يتمحور حول كل المنتجات المادية العمرانية، الصناعية و الفنية المتقدمة؛ فهو البنية المادية المحسوسة الملموسة كالمنازل والجسور.....الخ.[1] ويجسد المخطط التالي ما ذكرناه: [2]

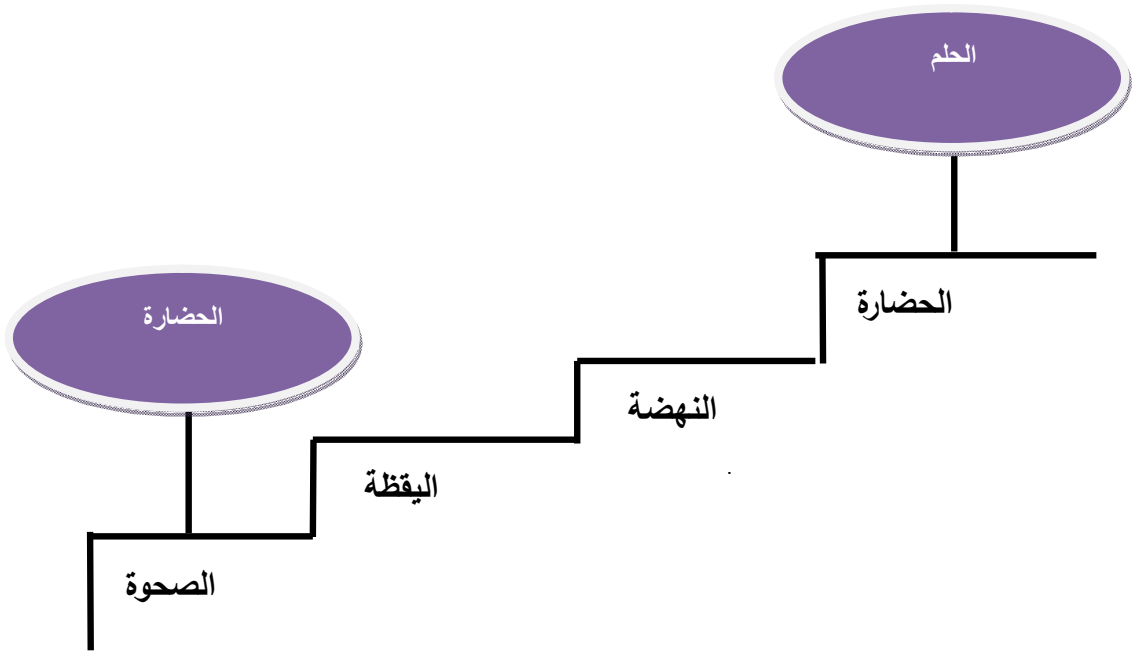

ومن خلال هذا التقسيم للاستجابات يظهر واضحا جليا مدى تأثر توينبي بابن خلدون في تقسيمه للمجتمعات إلى ثلاث أجيال وهي كالتالي:

[1]/ جاسم سلطان، أداة الفلسفة، ص56.

[2]/ المرجع نفسه، ص 55.

الجيل الأول: البدو؛ هم أصل المجتمعات، جيل الثاني التحول إلى الحضر،[1] والجيل الثالث الذي يبلغ فيه الترف غايته من الوجود.[2]

ولهذا فالتحدي والاستجابة هما عصب قيام الحضارة، وهو ما بينه لنا توينبي من خلال تقسيمه لأنواع التحديات والاستجابات، ومن أجل التوضيح أكثر حاولنا وضع مخطط يبين مدى ايجابية تفاعل التحديات والاستجابات ببعضها حتى نصل بها الحضارة:[3]

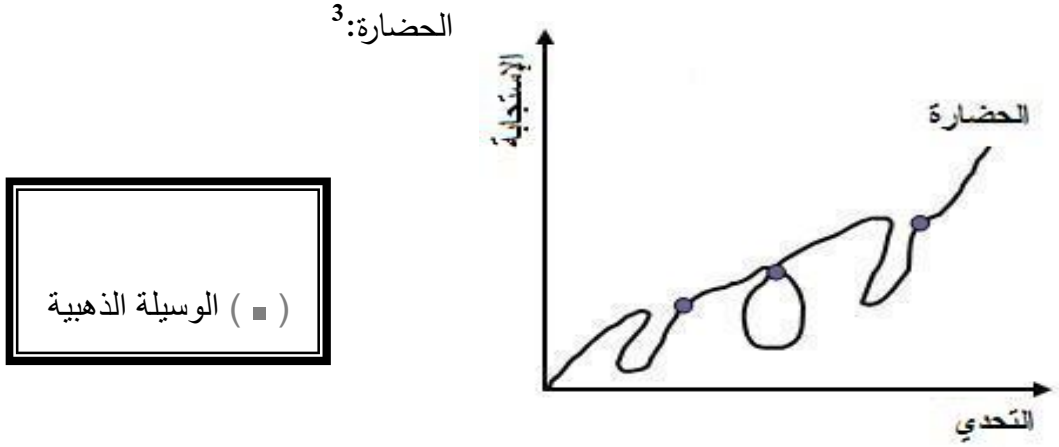

[1]/مصطفى الشكّعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، ط03 ،(بيروت، الدار المصرية اللبنانية، 1992) ص54.

[2]/ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ج01، ص 383.

3/ جاسم سلطان، أداة الفلسفة، ص 58.

المبحث الثالث: الجانب الإيجابي والجانب السلبي من نظرية أرلوند توينبي

أولا: <u>الجانب الإيجابي:</u> يتمثل الجانبي المثمر من نظرية " التحدي والاستجابة "عند أرلوند توينبي في استخلاصه لأهم أفكارها، وهي كالتالي:

1/ <u>فكرة الأبوة والبنوة:</u> وتعني هذه الفكرة أن بعض الحضارات وليدة حضارات أخرى سابقة عليها، وبناءا على ذلك يرى توينبي أن الحضارة الغربية الحديثة هي وليدة الحضارة الهللينية (اليونانية و الرومانية) وكذلك الحضارة الإسلامية هي نتاج اندماج المجتمعين العربي والإيراني وهما بدورهما وليدتا المجتمع السرياني ومن خلال هذه الفكرة يوافق "صموئيل هنتنغتون" توينبي في أنه لا يمكن فهم جزء من حضارة ما إلا بالعودة إلى الكل المشكَل لهذا الجزء؛ أي ضرورة الرجوع إلى الحضارات التي كانت كأب لهذه الحضارة[1] لكن هذه الفكرة تنزاح إلى النسبية إذا أنها لا تنطبق على كل الحضارات، حيث يرى توينبي أن هناك بعض الحضارات لا تنتمي بالبنوة إلى الحضارات أخرى، كما أن هناك بعض الحضارات لا تجد من يأخذها كأب[2] ويقدم توينبي مثالا عن ذلك وهي الحضارة المصرية القديمة التي لم يكن لها أب كما لم يكن لها أبناء حيث يقول:" ليس للمجتمع المصري سلف ينتسب هو إليه كما أنه ليس له خليفة."[3]

2/ <u>فكرة المدنية المقابلة للبدائية:</u> تقوم هذه الفكرة في رأيه على أساس أن المجتمع هو وحدة الدراسة التاريخية القابلة للفهم، والمجتمع إما أن يكون مجتمع بدائيا أو متمدينا،وقد رأى توينبي أن وحدة الدراسات

---

[1]/ صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات . إعادة صنع النظام العالمي . ، تر: طلعت الشايب، ط02، (مصر،شـــركة سطـــــور، 1999)، ص70.

[2]/ رأفت الشيخ، فلسفة التاريخ، ص 185.

[3]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج4، ص255.

هي دراسة لمجموعة من البشر يطلق عليهم اسم " المجتمع" وبعد ما أقام بدراسة مجموعة كبيرة من المجتمعات القديمة والحديثة وقارن بينهما، وجد أن المجتمعات البدائية أكثر عددا من المجتمعات الحضارية (المدنية)، وأقدم وجودا حيث أن عمر الحضارات برأييه لا يزيد عن ستة آلاف سنة، في حين أن هناك مجتمعات بدائية ترجع إلى ثلاث مئة ألف سنة وتتصف المجتمعات البدائية بصغر المساحة الجغرافية وقلة عدد السكان، وقصر أجلها، إذ غالبا ما تكون نهايتها على يد مجتمع آخر متمدين، أما المجتمعات المتمدينة(الحضارية) فهي أقل عددا من المجتمعات البدائية و أوسع مساحة، وأكثر سكانا من المجتمعات البدائية؛ يقول:ولو استطعنا إجراء تعداد لأفر اد الحضارات الخمس التي لا تزال حية وقتنا هذا لكان من المحتمل أن نجد كل مجتمع من مجتمعاتنا الهائلة، يضم وحده عددا من البشر أعظم مما ضمته المجتمعات البدائية كلها معا منذ انبعاث الجنس البشري"[1].

3/ **فكرة أوقات الاضطراب:** ويعني بها توينبي الفترة الفوضوية التي تأتي بين تآكل أحد المجتمعات وقيام مجتمع آخر؛انهيار حضارة وميلاد حضارة أخرى جديدة وفق مفهوم الأبو َة والبنو َة؛ ولعل أكبر مثال على ذلك هو فترة العصور الوسطى المظلمة التي تقع بين وفاة الهللينية وقيام مجتمع غرب أوربا المسيحي، وهذه الفترة التي بلغ فيها العجز الهلليني أقصى مداه. فهذه الفكرة تعبر عن المرحلة الفاصلة مابين اندثار حضارة ما تمثل "الأب" وبين ولادة حضارة أخرى هي "الابن الشرعي" للحضارة السابقة عليها، علما أن هذه الفترة قد تطول أو قد تقصر.

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ،ج1، ص59.

4/ فكرة البروليتاريا الداخلية: ويقصد بها توينبي عامة الشعب الذي يشكل الطبقة المحرومة من حقوقها الشرعية والذين لا يشعرون بأي انتماء إلى وطنهم إلا بأجسادهم فقط، وهذا ما يدفعهم للخروج من مجتمعهم وقد يكونون هم المسيطرين على هذا المجتمع، وأكبر مثال على ذلك الجماعة المسيحية التي ظهرت في الوسط المجتمع الهلليني وقت أفول شمس الهللينية. و البروليتاريا الداخلية في حالة الهللينية هي الكنيسة المسيحية حتى استطاعت السيطرة على الإمبراطورية كلها، وأصل هذه الكنيسة نفر من المبشرين الوافدين من الشرق ومن جماعة العبيد وصيادي السمك[1].

5/ فكرة البروليتاريا الخارجية: وتظهر هذه الفئة مع بدأ انهيار الحضارة، وذلك عندما يتخلل الانشقاق بين البروليتاريا الداخلية و الأقلية المسيطرة في أي حضارة آلت إلى الزوال إذ يصبح المكو َن الاجتماعي لهذه الحضارة الآيلة للانهيار كالتالي: أقلية مسيطرة ومستبدة فقدت القدرة على الإبداع وأصبحت تحكم بالحديد والحروب، و بروليتاريا داخلية مقموعة وذليلة ولكنها تنتظر الفرصة للثورة، و بروليتاريا خارجية انشقت عن المجتمع وتقاوم الاندماج فيه وتنتظر الفرصة للغزو.

وكأن توينبي يقصد بأن البروليتاريا الخارجية تعاني مشكلة النقص ويشكل عقدة لديها اتجاه المجتمعات المجاورة لها والمتقدمة عليها حضاريا، وهذا ما يدل على أن أسباب نقمتها على الشعوب المتحضرة وما يجعلها تنتظر القطرة التي تفيض الكأس لتدمرها وتقضي عليها.

6/ فكرة الدولة العالمية والكنيسة العالمية: يعتبر توينبي أن الدولة العالمية ظاهرة أساسية من الظواهر التي تنشأ عقب انهيار حضارة ما، وتكون مهمتها تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعية؛

[1]/ رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، ص،197.

فالدولة السياسية في هذه الحالة تحاول تحقيق الوفاق الاجتماعي من أجل القضاء على كل الانقسامات في المجتمع المتحلل خاصة الانقسام بين الأقلية المسيطرة وكل من البروليتاريا الداخلية والخارجية وتحاول إقامة علاقات مع الحضارات الأخرى، وتظهر هذه الفكرة كما يعتقد توينبي "في مفهوم المؤسسات التي تضم في جنابتها كل مناحي الحياة السياسية والدينية للمجتمع التي تقوم فيه هذه المؤسسات "[1].

إذا أهم ما تتيحه الدولة العالمية هو فرصة قيام أديان عالمية من خلال البروليتاريا الداخلية والتي لا تعمل في المجال السياسي بل تعمل في المجال الديني ويقول:" وظاهر أن الأقليات المسيطرة هي التي أنجبت الفلسفات التي ألهمت إنشاء الدول العالمية وقتا ما. ونشأة البروليتاريا الداخلية الأديان السامية التي رنت إلى التطور إلى عقائد دينية عالمية، ونشأت عن البروليتاريا الخارجية عصور البطولة التي هي ملاحم عصابات الحرب المتبربرين، وظاهر أن هذه المراحل والنظم تؤلف بوجه الإلهرباط الأبو ّ ة والبنو ّ ة بين حضارتين"[2].ومن أهم مظاهر الدولة العالمية ما يلي:

المظهر1: تنبعث الدول العالمية بعد انهيار الحضارة.

المظهر2: تنبعث الدول العالمية عن الأقليات المسيطرة.

المظهر3: يعتبر انبعاث الدولة العالمية تعبيرا عن "لم الشعث"إ َان عملية التحلل التي تمارس فعلها برأي توينبي بصورة خفقات من(كسرة ونهضة ثم كسرة)، و" الدولة العالمية تضع حدا لعصر الاضطرابات

[1]/ نقلا عن: أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص199.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ،ج3، ص ص 03،04.

وهذا ما يجعل الدولة العالمية تقوم بعمليتين مختلفتين فهي من جهة ظاهرة من ظواهر تحلل المجتمع، ومن جهة أخرى تسعى لكبح هذا التحلل"[1].

7/ فكرة المجتمعات التي كانت متمدنة ثم بادت أو تحجرت: يضرب لنا توينبي أمثلة لهذه المجتمعات كالحضارة السومرية والحضارة الحيثية*[2] والبابلية، والأنديانية،و المكسيكية، والحضارة المصرية، فيرى أن هذه الأخيرة أم الحضارات التي عاشت زمنا طويلا وعمرها أطول من أي حضارة أخرى عرفها التـــــاريخ؛ وهذا يعني برأيه أن الحضارة المصرية هي إحدى الحضارات التي كانت متطورة ثم تحجرت أو بادت. وبالتالي يعني أنه ليس لها ابن يرثها ويتخذها كأب بناءا على فكرة الأبّ ة والبنّ ة.

ثانيا: الجانب السلبي:

01/ نقد نظرية وحدة الحضارة:عمل توينبي على تفنيد نظرية وحدة الحضارة والتي تعني أنه لا وجود لحضارة واحدة فقط هي الحضارة الغربية،و أن كل ما قدمته الأمم السابقة من إنتاجات، فكرية وانجازات مادية،ما هي إلا رو افد تصب في نهر الحضارة الغربية أو عبارة عن توابع تدور في فلكها، وقد صاغ هذه الفكرة مؤرخون غربيون تحت تأثير محيطهم الاجتماعي.

---

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ،ج3، ص 05.

2/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 200.

* **الحضارة الحيثية:** هم شعب قديم بآسيا الصغرى وشمال سوريا، ويرجع نسبة إلى قبيلة الأناضول أنشئوا دولة قوية عاصمتها "يوغاركوى"الحالية.(مروان بركات، عفرين عبر العصور، حلب، ط1 ،دار عبد المنعم، 2007، ص99).

و أكبر دليل على ذلك المؤرخ فرنسيس فوكوياما* حيث اعتبر نهاية التاريخ تكمن في نجاح الليبرالية الديمقراطية عند الجنس الغربي الرأسمالي، فهي نقطة النهاية في التطور الأيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري وبالتالي هي تشكل نهاية التاريخ".[1] فهذا الرأي حسب توينبي هو وهم راجع إلى سيادة الحضارة الغربية في المجالين الاقتصادي والسياسي كما أن لهذه الفكرة ثلاثة جذور هي:

. **وهم حب الذات**:إذ ير اه توينبي أمر طبيعي، يقول:"وجماع ما يجب قوله هنا إن الغربيين ليسوا ضحاياه الوحيدين، إذ عانى اليهود كثيرا من وهم أنهم ليسوا شعبا مختارا فحسب لكنهم الشعب المختار الأوحد "[2].

. **وهم الشرق الراكد**: وهو وهم قائم على أسس ودراسات غير موضوعية، وسبب ذلك برأيه يعود" إلى أن الشرق الذي يعني هنا أي بلد واقع بين مصر والصين، كان وقتا ما متقدما على الغرب كثيرا ويبدو الآن متخلفا عنه بمراحل ومن ثم فبينما كنا نتحرك كان الشرق راكدا."[3]؛ إذا فركود الشرق في مراحل معينة من التاريخ لا يعني ركودا دائما، فالغرب أيضا مر بمراحل من الركود مشابهة للشرق ولعل مخلفات الحرب العالمية تدلل على ذلك أكثر.

. **وهم التقدم كحركة تلتزم خطا مستقيما**: وهذا الوهم يعتبره أنموذجا لذلك الميل إلى المغالاة في التبسيط الذي يظهره العقل البشري في كافة أوجه نشاطه، ومثله مثل تقسيم التاريخ إلى أطوار (قديم، وسط،

---

[1]/ فرنسيس فوكو ياما، نهاية التاريخ وخاتمة البشر، تر: حسين أحمد أمين، ط 03، (القاهرةمركز الأهرام للتر جمة 1993)، ص08.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص62.

[3]/ المصدر نفسه، ص 62.

* **فوكوياما**: ولد في شيكاغو (56سنة) ألو.م.أ من أصول يابانية ، يشتغل في منصب أستاذ اقتصاد السياسي الدولي ومدير برنامج التنمية الدولية في جامعة "جوان هوبكنز" ب.ألو .م.أ (Donaldm, Borchert, Encyclopedia of philosophy ,p70)

حديثو)هذا التقسيم برأي توينبي خاطئ لأنه أشبه ما يكون بالجغرافي ُ الذي يؤلف كتابا في الجغرافيا ويسميه جغر افيا العالم ثم يتبين بفحصه أنه جميعه يتحدث عن حواضر البحر الأبيض المتوسط و أوربا ولم يتناول فيه بقية مناطق العالم[1].

وما يخالف فكرة وحدة الحضارة هو ما توصل إليه توينبي من بعد دراسته للتاريخ حيث وجد أن إحدى وعشرين حضارة (والحضارة الإسلامية من بينهم) ساهمت كل واحدة منها في تطور البشرية وارتقاءها.

02/ <u>نقد نظرية الأجناس</u>: يرى أرلوند توينبي أن المفاهيم التي تستند إليها هذه النظرية مفاهيم تميل إلى الذاتية بشكل واضح وبعيد كل البعد عن الموضوعية، فمن المعلوم أن كل عرق، وخاصة في المراحل الأولى من النقد الاجتماعي،يعتبر نفسه أجلَ عرق، وهو فخور قبل كل شيء بما يميزه عن غيره من العروق[2]. فأصحاب هذه النظرية أمثال" توكفيل" يرون أن هناك مجموعة من الصفات الوراثية المميزة تنتقل عبر الجينات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، ويلتقي هؤلاء في نقطة جامعة هي أن التفوق الفكري مرتبط بلون البشرة، فالسلالة ذات البشرة البيضاء، والشعر الأشقر(الإنسان النوردي) أو الوحش الأشقر على حد تعبير الفيلسوف الألماني: " نيتشه" الذي كان من المغالين في تمجيد الرجل الأعلى الأوربي أو " السوبر مان" في قوله:" نحن لا نريد أن نكون سواسية أمام الرعاع، لتبتعدوا عن السوق أيها الرجال

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص 63.

[2]/ بليخانوف، فلسفة التاريخ المفهوم المادي للتاريخ، (د، ت)، ص 78.

الراقون"[1] ؛ فهذه السلالة هي الأكثر قدرة على التفكير، وبالتالي هي الأقدر على صنع الحضارات لما تمتلكه من تفوق روحي وفكري ؛ ولكي يهدم توينبي هذه المزاعم، استعان بنتائج أصول السلالات البشرية، فتوصل إلى أن علماء أصول السلالات يقسمون الرجال البيض حسب صفاتهم البدنية إلى ثلاثة أجناس بيضاء أسماها: الجنس الألبي، الجنس النوردي ، وجنس البحر الأبيض المتوسط؛ فكل هذه الأجناس ساهمت في نشوء الحضارات، بالإضافة إلى توضيحه هذه الفكرة من الحضارة الإسلامية حيث نجده يوضح أن عامل الحكم فيها هو الدين وليس لون البشرة، وبالتالي فهو" ينكر عن المسيحيين تقسيمهم للعالم على أنه متكون من رومانيين نبلاء و عبدة أوثان همجيين"[2]

قد توصل " توينبي"بعد الإطلاع على هذه النتائج وا ٍجراء المقارنة بينها إلى عدة نتائج مفادها؛ أن ثمة شعوب كثيرة لم تساهم في بناء أي حضارة مثل الشعوب السوداء، وكذلك فإن نصف الحضارات قائمة على أساس مساهمات أكثر من جنس واحد، ومما ينفي خطا هذه النظرية أيضا هو أنه ثبت بالبرهان اليوم أن ذلك الاعتقاد بأن الجنس الأسود أقل ذكاء وقدرات من غيره من الأجناس هو خاطئ لأنه حاليا أصبح السود يتقدمون في كل ميادين النشاط الإنساني بعد أن تخلصوا من التعصب الذي كان الأوربيون ينظرون به إليهم[3]. وربما كانت هذه هي نقطة الضعف التي تسلل إليها الأوربيين لغزو القارة الإفريقية واستعمارها، ويعد احتلال فرنسا للجزائر أكبر دليل على ذلك الذي دام 132 سنة من 1832إلى

[1] / فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تر: فليكس فارس، (الإسكندرية، مطبعة جريدة البصير، 1938)، ص 529.

[2]/ أرلوند توينبي، تاريخ الحضارة الهللينية، ص 271.

[3]/ حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخين، ص18.

1962 ولم تستنشق الجزائر الحرية إلا بعد انتزاعها منهم بالقوة، ناهيك عن المخلفات البشرية والمادية الباقي أثرها حتى يومنا هذا(منطقة رقان).

03/ <u>نقد نظرية البيئة الطبيعية:</u> زعم أصحاب هذه النظرية أن نشوء الحضارات يعود إلى علة رئيسية واحدة هي" البيئة" فالبيئة السهلة ذات المناخ الملائم للزراعة والاستقرار، والتي تتوفر فيها المياه ومصادر الرزق هي البيئة المناسبة المباشرة والوحيدة التي تستحث الأمم على بناء الحضارات وتطويرها؛ في حين أن البيئة الصعبة تقف عقبة في طريق ولادة الحضارات ونموها.

أما توينبي فقد سعى إلى إثبات خطا هذه النظرية، ورأى أنه ليس من الضروري أن تكون البيئة السهلة سببا في انبثاق الحضارة إلى حيز الوجود، وضرب عدة أمثلة على ما ذهب إليه:" إذا كان نهر النيل علة الحضارة المصرية القديمة فإنه يجب أن تشأ الحضارات في بيئات من الطراز النيلي،وا ذا كانت حضارة ما بين النهرين تؤكد ذلك، فإن عدم قيام حضارات في وادي الأردن تدحضها(...)"[1].

وفي نهاية المطاف لا يمكننا أن نصر ح بأن عامل البيئة بمفرده سببا لنشوء الحضارات، فقد يكون شرطا لازما ولكنه غير كاف؛ ولهذا نجد" توينبي" يذهب بنا إلى أبعد الحدود حيث أنه يقف على الطرف النقيض من نظرية البيئة، إذ يعتبر أن الظروف الصعبة وليس السهلة التي تستحث الإنسان على صنع الحضارات، فالظروف القاسية هي التي تجبره على ذلك، أما رقة العيش ورفاهيتها هي التي تقف حائلا أمام صنع الحضارات، إذ يؤكد توينبي خطأ ما قاله "هيرودوت" سابقا أن " مصر هبة النيل " ويرى أن

[1]/أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص64.

الحضارة المصرية هي هبة المصريين الذين صنعوها، فدلتا النيل كانت مغطاة بالمستنقعات والأدغال والإنسان المصري القديم هو الذي استصلحها وعدَ لها ليقيم عليها حضارته.

الـفصـل الـثالث: الـبعد الحـضاري عنـد أرلونـد تـوينـبي.

الـمبـحـث الأول: مفـهـوم الـــحـضــارة.

المـبحـث الثاني: نشـوء الحضارات وتعاقبها عند أرلوند توينبي.

المبحــث الثالث: تطبيق النظرية في المعطى التداولي العربي الإسلامي.

المبحث الرابع: مـقـتـرحـات تـوينـبـي لإنـقـاذ الـحـضـارات.

البعد الحضاري عند أرلوند توينبي

في هذاالفصل الثالث والأخير بيّنا فيه البعد الحضاري عند أرلوند توينبي، بدءا بتحديد مفهوم الحضارة عند بعض الفلاسفة في مختلف العصور وصولا إلى مفهومها عند توينبي لغة واصطلاحا، إذ وراء أكمة اللغة يقول فتجينشتاين يوجد مكمن الوجود[1]؛ لننتقل بعد ذلك لنشوء الحضارات وتعاقبها بشكل تسلسلي من نشوء الحضارات حتى تحللها، ولنؤكد النظرية أكثر حاولنا أن نراها من جانب الحضارة العربية الإسلامية، لننتهي بأهم الاقتراحات التي قدمها توينبي في إمكانية إنقاذ الحضارات من الزوال والاندثار، وهو ما اجتهدنا من أجله.

المبحث الأول: مفهوم الحضارة لغة واصطلاحا

عندما نبحث عن معنى الحضارة؟ ونتساءل عن مفهومها؟ فإننا سنجد أنفسنا أمام تساؤل غاية في الصعوبة وذلك لتشعب المصطلح، ولهذا حاولنا أن نجد مفهوما مناسبا يلقى الرضا من الجانب اللغوي و الجانب الاصطلاحي.

01/من الناحية اللغوية :

إن المتتبع للفظ الحضارة، كما ورد في معاجم اللغة العربية لا يكاد يخرج عن دائرة الإقامة في الحضر أي في المدن والقرى، فهو نقيض البداوة، والتي تعني الإقامة المتنقلة في البداوي حيث يرى "ابن

[1]/ جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أوزفالد اشبنجلر، ص35.

منظور" في معجمه لسان العرب وهو يفسر الحضارة (الحضر: خلاف البداوة. والحاضر: خلاف البادي. والحضارة: الإقامة في الحضر[1].

والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، والبادية يمكن اشتقاق اسمها من بدأ، برز، ظهر، إذا حضر وبدا تعني الحضور والظهور الملازم في ذلك الموقع دون سواه.

ونجد في المعجم الفلسفي"جميل صليبا" أنه قد ميز بين نوعين من التعريف أحدهما موضوعي وآخر ذاتي، ويعرفها بأنها: الإقامة في الحضر، بخلاف البداوة، وهي الإقامة في البوادي؛

ففي المعنى الموضوعي: يرى أنه تطلق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني، التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة. ونقول: الحضارة الصينية، والحضارة العربية، والحضارة الأوروبية، وطبقاتها (couches) ولغاتها (langues) فنطاقها هو حدودها الجغرافية وطبقاتها هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات، ولغاتها هي الأداة الصالحة للتعبير عن مختلف أفكارها.

أما المعنى الذاتي: تطلق على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش أو تطلق على الصورة الغائية التي تستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة، فإذا

[1]/ جمال الدين محمد ابن منظور، لسان العرب، المجلد04، (بيروت، دار بيروت، 1955)، ص 19.

كان الفرد متصفا بالأخلاق الحميدة المطابقة لتلك الصورة الغائية قلنا متحضر فالتحضر متفاوت بحسب قربها من هذه الصورة الغائية أو بعدها عنها[1].

02/من الناحية الاصطلاحية: وبعد هذا التباين في المفهوم اللغوي بين الفلاسفة نظرا لاختلاف الحقب التاريخية، يمكننا أن نقدم التعريف الاصطلاحي علّه يبدد لنا ذلك الاختلاف. إذ نجدها اصطلاحا عند ابن خلدون* حيث "فرق في تعريفه للحضارة بين العمران البدوي والعمران الحضري. فالبداوة عند ابن خلدون أصل الحضارة، والبدو أقدم من الحضر"[2]. وهو ما تناوله "زكي الميلاد" الذي يذهب أيضا إلى أنه يمكن التوفيق بين الحضارة بمعنى الحضور، وهو نقيض الغياب، والحضارة بمعنى الحاضرة في مقابل البادية[3].

إذ يعتبر أول من توسع في الكلام عن الحضارة والتفريق بينهما وبين البداوة الذي يرى أن الناس حين تخطوا في كسبهم للمعاش في ما هو ضروري "وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدّعة وتعاونوا واستكثروا من الأقوات والملابس وتوسعهم للبيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر. ثم تزيد حالة الرفه (...)فتجيء معالاتالبيوت والصروح وا ٍحكام وضعها في تنجيدها

---

[1]/ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1 (بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982)، ص 476.

[2]/ ابن خلدون، المقدمة، ج 1، ص01.

* **عبد الرحمان ابن خلدون:** هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولدفي تونس(1332- 1406) مؤسس فلسفة التاريخ أو فلسفة المجتمع من أهم مؤلفاته المقدمة(زكي نجيب محمودو آخرون،الموسوعة الفلسفية المختصرة ،بيروت، دار القلم، ص ص16,15).

[3]/ شبلي هجيرة، إشكالية مستقبل العلاقة بين الحضارات . زكي الميلاد نموذجا . ، مذكرة ماجستير، إشراف: عمراني عبد المجيد، (باتنة، 2013/2012)، ص24.

والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه (...). وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان "[1].

فالحضارة بالتعبير الخلدوني مرادفة للمدنية، حيث تعني درجة من التقدم التي تبلغها المجتمعات وهي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه المادي[2].

ويعرفها لالاند في موسوعته بقوله: " مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة، ذات طبيعية قابلة للتنقل تتسم بسمة دينية أخلاقية، جمالية فنية، تقنية أو عملية ومشتركة بين كل الأجزاء في مجتمع عريض أو في عدة مجتمعات مترابطة. الحضارة الصينية، الحضارة المتوسطة ."[3] فبذلك يؤكد أن الحضارة تشمل التقدم في ميادين الحياة البشرية.

كما ساق "ألبرت اشفيستر" تعريفا للحضارة حيث يرى:" أنها التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء وتقوم على مقومات التي تقلل الأعباء المفروضة على الأفراد والجماهير والناشئة عن الكفاح في الوجود وا يجاد الظروف المواتية للجميع في الحياة قدر الإمكان مطلب من أجل كمال الأفراد روحيا وأخلاقيا وهو الغاية القصوى من الحضارة"[4]. إذ يرى أنه يجب تلاحم الجانب المادي مع الروحي وبذلك الوصول إلى التقدم لنصنع حضارة، فالتقدم في الجانب الأخلاقي والمادي هو المعنى الحقيقي للحضارة.

---

[1]/ ابن خلدون المقدمة،ج 1، ص132.

[2]/ جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أوزفالد اشبنجلر، ص06.

[3]/ أندريه لالاند، موسوعة لالاند، ص 172.

[4]/ اشفيستر، فلسفة الحضارة، تر: عبد الرحمن بدوي، (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، 1963)، ص ص 34،35 .

وكذلك في العصر الحديث عرفها فيلسوف التاريخ "أوزفالد اشبنجلر":"الحضارة تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة وتنفصل هذه الروح عن الروح الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية، وأنها كائن لها طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها، وأنها تموت عندما تحقق روحها جميع إمكاناتها الباطنية وبذلك تتحول إلى مدنية"[1]. فالحضارة عنده تشبه الكائن العضوي، فلكل حضارة دورة حياة من نمو ثم شباب ثم شيخوخة يعقبها فناء. ولكن ما يهمنا في صدد دراسة نظرية التحدي والاستجابة هو تعريفها عند توينبي فما هو هذا التعرف الذي قدمه؟

إن مفهوم الحضارة عند توينبي له العديد من المفاهيم القريبة منها، مثل مجتمع société؛ مجتمعات société؛ حضارات civilisations؛ وحضارة civilisation...الخ وذلك بعد مقارنته الحضارات بالمجتمعات البدائية حيث يقول:" وثمة اختلاف آخر بين الحضارات والمجتمعات البدائية مداره قلة عدد الحضارات المعروفة في حين يجاوز عدد المجتمعات البدائية المعلومة ذلك كثيرا"[2].

[1]/ أوزفالد اشبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، (بيروت، دار مكتبة الحياة، دس)، ص 12.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، 58.

فالمجتمع من منظوره هو الشبكة الكاملة للعلاقات بين الأفراد الذي لا يتشكل من دونهم، يقول:" الأفراد بكل بساطة هم النقاط المركزية داخل شبكة العلاقات"[1]؛ أي أنه كما يرى القديس أوغسطين "بأن المجتمعات ليست حشدا عشوائيا من البشر و إنما مجموعة من الناس ألَف بينهم فكر واحد"[2]. ويضيف لذلك بن نبي بأن المجتمع له دور أساسي في عملية الحضارة ويجب أن تتوفر لكل أفراده الضمانات الاجتماعية اللازمة[3].

وبعد مقارنة توينبي للمجتمعات البدائية مع المجتمعات المتحضرة أسس لمفهوم كلمة "حضارة" و"حضارات" وأن كل حضارة تحمل شبكة علاقات لمجتمع ما ومن المستحيل فعليا دراسة حضارة ما منفصلة عن مجتمعها بوصفه الميدان الذي تجسَدت عليه، ووصف المجتمع الذي تعيش فيه المهد الذي ترعرعت في وسطه قبل أن تخرج للعالم فهي إذا تحمل صفاته وتطلعاته[4].

وبعد هذا التعريف الذي قدمه أرلوند توينبي لمعنى الحضارة؛ يجدر بنا الآن أن نتساءل عن كيفية نشوء الحضارات وتعاقبها من وجهة نظر توينبي؟ وما هي أهم المراحل التي تمر بها كل حضارة في تاريخ البشرية؟

---

[1]/ Toynbee Arland ; l'histoir;traduit de l'anglais par jacques poitn et autres; paris; Bruxelles; elsevier séquoir; 1975.p41.

[2]/ هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا .،مذكرة ماجستير،إشراف موسى معيرش، (قسنطينة،2008/2007)، ص15.

[3]/ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي . مشكلات الحضارة . ، تر:بسام بركة وأحمد شعبو، ط1، (دمشق، دار الفكر، 1988)، ص 50.

[4]/ هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا.، ص16.

المبحث الثاني: نشوء الحضارات وتعاقبها

أولا/ ميلاد الحضارات:

لقد ُ ددت مقولة في كتاب أرلوند توينبي كم من مرة أثارت تفكيرنا، ولهذا يمكننا أن نستخرج منها كيفية نشوء الحضارات حيث تقول:"إن السهولة هي عدوة الحضارة و أن الظروف الصعبة لا السهلة هي التي تنتج حضارة"؛ فعندما تتوفر لدى الإنسان كل الظروف السهلة للعيش لا يمكنه أن يأتيا بجديد ولا أن يطمح لتكوين لحضارة، إلا إذا واجه تحديات صعبة تستحثه للاستجابات ناجحة، ففي تفسير توينبي لميلاد الحضارة ونشوءها استعان بالأدب واللاهوت والخيال و الأساطير حيث يقول:"استخدمنا حتى الآن العامل الايجابي في بدأ الحضارات خطط المدرسة الكلاسيكية في الطبيعة الحديثة، واستعملنا لبسط أفكارنا اصطلاحات مجردة(...)"[1]، وهدفه في ذلك معرفة الحضارة ومشكلة نشوءها في دراسته للتاريخ لهذا ينطلق توينبي في تصنيفه المقارن للحضارات من قاعدتين:

الأولى: دينية لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ندرس أي حضارة دون أن نضع تحت البحث والتحقيق دينها أو أديانها ويقول:" الديانات الكبرى هي الأنماط الكبرى للتاريخ"[2]

الثانية: جغرافية تخص التحديات الطبيعية و البشرية و البيئية ـ السابقة الذكر ـ

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ،ج1، ص 101.

[2]/ محمد الشفقي عبد الله، مع أرنولد توينبي، ط1، (القاهرة، الدار القومية، 1991)، ص ص 30، 34 .

ويقسم توينبي الإحدى وعشرين حضارة على أساس القاعدة الأولى(الدينية) إلى خمس(05) فئات:

أولا: الحضارات التي جددت تراث حضارات سبقتها النشأة وذلك بأخذها ديانة الأقلية الحاكمة واعتناقها.

ثانيا: الحضارات التي تنسب إلى حضارات سابقة بنشأتها في نطاق عقائد دينية خلفتها البروليتاريا الداخلية في تلك الحضارات السابقة.

ثالثا: الحضارات التي تمت بصلات ضعيفة إلى حضارات سابقة، باقتباسها ديانتها عن البروليتاريا الخارجية في تلك الحضارات السابقة.

رابعا: الحضارات المتقاربة التي انبعثت فيها بذور حياة العقائد الدينية، بتلاقح المؤثرات الخارجية والداخلية.

خامسا: الحضارات المنقطعة عما سبقها من الحضارات انقطاعا تاما.[1]

و يقسم توينبي الإحدى وعشرين حضارة على أساس القاعدة الجغرافية إلى أربعة أقسام:

01/ حضارة يقع موطنها الأصلي كله داخل النطاق الجغرافي لبعض الحضارات السابقة.

02/ حضارات يقع موطنها الأصلي كله داخل أرحب مدى جغرافي بلغته الحضارات السابقة؛ أي يكون التوسع الجغرافي للحضارة التي نشأت جديدة حسب التوسع الجغرافي الذي وصلت له الحضارة القديمة.

03/حضارات يقع جزء منها في موطن إحدى الحضارات القديمة السابقة وجزء آخر فوق أرض بكر.

1/ TOYNBEE; ARLOND; ASTUDY;OF HISTORY; LONDON, OXFORD, UNIVERSITY; PRESS; 1948;P184

04/حضارات يقع موطنها الأصلي فوق أرض بكر.[1]

ويستخلص توينبي بعد هذا التصنيف المورفولوجي للحضارات؛ نظريته في التعاقب الدوري للحضارات إذ توصل إلى أن هناك حضارات أو مجتمعات متصلة بأنساب حضارات قديمة وعددها خمسة عشر حضار ة، وأخرى منقطعة كل النسب الحضاري؛ أي أصلية وعددها ستة وهي: المصرية، السومرية المينوية، الصينية، الإنديانية، المايانية. و السؤال الذي يطرح الآن هو: كيف ظهرت هذه الحضارات الأصلية للوجود؟ ولا سيما أن توينبي قد رفض عاملي العرق و البيئة في نشأة الحضارات؟

للإجابة عن هذا السؤال يستلهم توينبي قانون التحدي والاستجابة الذي يستند إليه في تفسير كيفية ميلاد ونشوء الحضارات المنقطعة كالحضارة السومرية والمصرية؛ حيث أن المبدأ الرئيسي الذي تنطلق منه هذه النظرية هو أن الظروف الصعبة وليست السهلة هي التي حفزت الناس للانتقال من الحالة البدائية إلى الحالة الحضرية، فقد كان سكان السهب الأفراسي* أرض رعي عامرة بالحياة، ومع نهاية عصر الجليد أخذت هذه المنطقة تكابد تغييرا في أحوالها الطبيعية إذ حلَ الجفاف محل الأمطار، وكانت الاستجابة لتحدي الجفاف هي التي دفعت شعوب المنطقة الآفرو- أسيوية إلى البحث عن وسائل أخرى يقول:" ثمة جماعة استجابة لتحدي الجفاف بتغيير مواطنها وطريقة معيشتها معا، وكان رد الفعل هذا المضاعف النادر هو العمل ذا القوة الدافعة الذي خلق الحضارتين المصرية والسومرية من بين ظهراني المجتمعات البدائية التي كانت تعيش في المراعي الأفراسية السائرة في طريق الزوال"[2]

1/ TOYNBEE; ARLOND; ASTUDY;OF HISTORYPRESS;P184

* ويقصد بالأفراسي: الصحراء العربية الكبرى.

2/أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص115.

لكن مما يلفت الانتباه هو رفض توينبي العوامل الطبيعية الجغرافية في تفسير نشوء الحضارات؛ لكن نجده يستند إليها في التدليل على صواب منطقه ـ منطق التحدي والاستجابة ـ إذ نظر إلى العوامل البيئية نضرة مختلفة و يأويلها تأويلا اعتباطيا يجعلها تتفق مع مقولته بأن الظروف الصعبة وليست السهلة هي التي استحثت الشعوب على الانتقال من الحالة البدائية إلى الحضارية، ولكنه لم يعطينا دليل على أي حضارة نشأت في الصحراء، فكل الحضارات القديمة العظيمة نشأت على ضفاف الأنهار(أي أنها متأثرة بعوامل جغرافية بيئية) الكبرى، حضارة النيل والرافدين والنهر الأصفر في الصين ونهر الأمازون ونهر السند، أو على شواطئ البحار كالحضارة اليونانية والحضارة الأوربية فإما أن يكون أهل مصر قد استصلحوا الأراضي التي كانت مغطاة بالمستنقعات و الأدغال، أو أهل سومر قد شقوا الغرين وعملوا القنوات ومهدوا الأرض للزراعة.

فهذا ليس دليلا على غياب أثر العامل البيئي، فتلك البيئة النهرية الخصيبة كانت توفر الإمكانات الحقيقية لقيام الحضارات النهرية[1]، إذن يدل على إخفاق توينبي في معرفة الشروط الممكنة الطبيعية لنشوء الحضارات، فالحضارات لم تنشأ كما تصورها توينبي على هذا النحو المفاجئ بسبب انقلاب الطقس، بل هي حصيلة مسار طويل لخبرة الإنسان الاجتماعية في صراعه من الطبيعة ومع المجتمع وحتى مع غرائزه و أول الحضارات هو الإحساس بالخوف من عاقبة الاعتداء مما يؤدي باستجابة نشوء حضارة تمنع هذا الخوف وتبدده وتؤمن على حياة البشر فهو ما يؤكده ول دورنت أن:" الحضارة تبدأ عندما ينتهي الخوف والقلق"[2].

[1]/ أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، ج01، ص ص 75،85.

[2]/ ول ديرونت، قصة الحضارة، نشأة حضارة الشرق الأدنى، ج02، ط06 ،(دار المعارف، 1988)، ص05.

وبهذا تكون الحضارة أقدم بكثير مما توقعه توينبي وهو ما أدركه ابن خلدون فيمقدمته حينما فسَر ضرورة اجتماع الناس لتحصيل حصتهم من المعاش؛ فعلاقة التحدي بالاستجابة تتخذ إحدى صور ثلاث:

. إن قصور التحدي يجعل الطرف الآخر عاجزا تماما على استجابة ناجحة.

. أن يحطم التحدي البالغ الشدة روح الطرف الآخر.

. أن يصل التحدي إلى درجة معقولة تستثير الطاقات المبدعة.

فأعظم التحديات حافزا إذا توجد في متوسط بين التفريط والإفراط في الشدة.[1]

ثانيا: نمو الحضارات وطبيعة ارتقاءها

إذا كانت الاستجابة لتحديات معينة باءت بالفشل؛ فإن هذا يؤدي إلى استثارة تحديات جديدة وهكذا تدخل في مرحلة أخرى، فإذا نجحت يسمى هذا: *ارتقاءها حضاريا croissance de civil*؛ فكلما كثرت التحديات تقابل في كل مرة استجابات ناجحة، وهذا يعني أن هناك تقدما نحو الأمام أي الانتقال من الركود إلى الحركة ؛ فالتحدي الأمثل ليس هو الذي يقتصر على استثارة الطرف المتحدي لينجز استجابة ناجحة بمفردها ولهذا يقول:" ولكن ذلك التحدي الأمثل هو ما يشمل على كمية الحركة التي تحمل الطرف من مرحلة استكمال الاستجابة إلى مرحلة صراع جديد"[2]؛ فهذه هي العملية الديناميكية التي ترتقي بموجبها الحضارات.ويظهر هذا الارتقاء في الحضارات من خلال وثبة يحملها من تحدي إلى آخر مرورا باستجابة، ولهذا الارتقاء مظاهره الظاهرة و الباطنة حسب توينبي: (...) ففي الكون الأكبر يتبدى الارتقاء

[1]/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص270.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص 314.

على هيئة تفوق متتابع على البيئة الخارجية، أما في حالة الكون الأصغر يتبدى الارتقاء على هيئة تقرير المصير(...)"[1]، ولكي نقيس الارتقاء الحضاري يؤكد توينبي على ضرورة السيطرة على بيئتين:

الأولى: <u>السيطرة على البيئة المادية</u>: والتي تؤدي إلى إجبارية العمل و الاجتهاد من أجل الوصول إلى تحسين في المجال التكنولوجي المادي يقول:" نجحت الحضارة الغربية في السيطرة على بيئتها المادية ولكن هذا النجاح التقني أدى إلى خلق أزمات على مستوى العلاقات البشرية؛ واتساع الهوة"[2]؛ إذ نجد حسن حنفي يتحدث عن ذلك في نبذه للسيطرة الغربية في جل المجالات على العالم عامة و العربي خاصة قائلا:"فبعد الصدمة الحضارية الأولى في فجر النهضة الحديثة ومنذ الحملة الفرنسية على مصر بدأ الأنا يقرأ ذاته في الآخر، وضرورة لحاق الأول بالثاني ولكن سرعان ما أصبح الغرب نمطا لتحديث في العديد من المجالات في العلم في القوة في الصناعات العسكرية (...)"[3]

الثانية: <u>السيطرة على البيئة البشرية</u>: أي توسيع بعض الشعوب مناطقها على حساب مناطق شعوب أخرى، ويصاحب هذا التوسع الجغرافي انهيار المجتمع بشكل فعلي ويدخل في عصر الاضطرابات أو قيام دولة عالمية[4].

---

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص 314.

[2]/ هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا، ص35.

[3]/ حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب للتراث والتجديد موقفنا من التراث الغربي ـ ، (القاهرة، الدار الفنية، 1991) ص ص 63 ،64.

[4]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج 1، ص17.

ويبين ذلك بقوله:" فما الذي يدعو الهللينيين لمواصلة حرب مدمرة ضد بعضهم البعض إذا ما كان في استطاعتهم جمع كلمتهم لإخضاع واستغلال المجال الحيوي الشاسع الهائل الذي يمتدإلى الشرق وا ِلى الجنوب منهم"[1]

غير أن توينبي لا يقول بالتوسع الجغرافي الذي يكون في شكل حروب لأن النزعة الحربية لا تكفل الارتقاء الحقيقي للحضارات، بل تؤدي إلى التدهور أو كما يذكر صبحي:" لقد تبين لنا الآن التوسعات الحربية من جانب حضارة متفوقة ماديا ليست إلا دروبا خداعة لا تؤدي إلا الطريق السليم"[2]، وتؤكد "آمنة تشيكو" أن أفراد المجتمع هم الركيزة الأولى للارتقاء، خاصة الفئة العبقرية فهي التي يشع منها الارتقاء إذ يقيمون بتحقيق طموحاتهم وكشفهم عنها وهداية المجتمع الذي ينتمون إليه.[3] فالأقلية المبدعة هي وحدها المخو َ لة للتغلب على أي قصور ذاتي في المجتمع نظرا لأصالة عملها أو إبداعها، أما فيما يخص عامة الأفراد فيجب عليهم أن يمجدوا هاته الفئة.

فركيزة الارتقاء الحضاري عند توينبي يسميها:" **التسامي**"؛ ذلك أن التسامي له دور كبير في بعث وتطوير القوى الكامنة لدى المجتمع و التغلب على الحواجز المادية باعتبار فكرة التسامي تعمل على إطلاق المجتمع من رباطه، إذ يخرج كل طاقاته الدفينة ليخدم حضارته لترتقي إلى ذروة الازدهار والتقدم الحضاري، ولتستجيب للتحديات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس أكثر منها خارجا؛ أي أنها روحانية

[1]/ أرلوند توينبي، تاريخ الحضارة الهللينية، ص132.

[2]/ نقلا عن: أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 281.

[3]/ هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا، ص37.

الطابع أكثر من كونها مادية.[1]؛ فالارتقاء الحقيقي يتحقق عندما يواجه الإنسان تحديات ويستجيب لها وبعدها يدخل في تحديات جديدة بشكل مستمر وفق طريقة الين و اليانج.

ولكن بعد الوصول إلى هذه الدرجة من الارتقاء،يعني الوصول إلى درجة التخمة على حدّ تعبير توينبي، تبدأ الحضارة بالولوج إلى مرحلة جديدة وهي التدهور و الانحلال. فكيف يكون ذلك حسب توينبي؟ هذا ما سنعرج عليه في النقطة التالية.

ثالثا:انهيار وتحلل الحضارات:

يميز توينبي بين: الانهيار Déclin des civilisations و التحلل الحضاري désagréation des civilisations؛ أي أن الحضارة بعد أن تقوى قواعدها الأساسية تنحو إلى الأفول و الاندثار وذلك يكون من خلال هاتين المرحلتين؛ فعصر التدهور هو عنوان خاتمة الحضارة في تدرجها المرحلي ويكون ذلك بعد وصولها إلى ذروة التطور وريعان النضوجفكيف وضّح توينبي طريقة انهيار الحضارات ؟

الانهيار يعني به السقوط الذي لا يكون نهائيا؛ فأي حضارة ما قابلة للتجديد مرة أخرى حيث يكون هذا التجديد في أغلب جوانب الحضارة وهو ما يسمى" فقدان السيطرة"[2]، فتوينبي بعدما قدم لنا كيفية نشوء الحضارات الآن يسوقنا إلى انهيارها، يقول:"إن كنا قد رأينا أن ارتقاء الحضارة كان بفضل قوة مبدعة

[1]/زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص110.

[2]/ أرنولد توينبي، الحضارة في الميزان، تر: أمين احمد شريف، (القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1948)، ص 20.

تتحكم وحدها في تقرير المصير يبقى لنا أن نرى إن كنا نستطيع تفسير انهيار الحضارات بفقدان هذه الطاقة"[1].

فانهيار الواحد وعشرون حضارة والتي لم يبق منها إلا ستة حضارات، يحيلنا إلى طرح مجموعة من الأسئلة علَها تساعدنا في حل هذه الإشكالية التي نحن بصددها: فكيف انهارت هذه الحضارات؟ وما الذي يتسبب في ذلك بعدما وصلت إلى ذروة التطور؟ ولماذا عجزت هذه المجتمعات عن تحقيق الاستجابة الناجحة في وجه الاعتراضات التي لاقتها؟ وما طبيعة العوامل التي أدت إلى انهيارها؟

يقول توينبي"ما نثبت معا بأن الحضار ات قد اندثرت ولكن ليس من قبل غزاة أغاروا عليها ولكن دمارها كان قد انبثق من داخلها"[2]؛ ذلك أن سبب انهيارها يعود إلى ثلاث نقاط هي: "قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية الحاكمة" و "عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية العاجزة عن الإبداع"، وأخيرا "فقدان الوحدة الاجتماعية، وانقسام المجتمع إلى قسمين مميزين هماالبروليتار يا الداخلية الذليلة والعنيدة و البروليتاريا الخارجية التي تقطن وراء الحدود وتقاوم الاندماج في العنف"[3]، وهو ما أكده محمود صبحي بأن العامل الرئيسي في انهيار الحضارات هو فقدان الأقلية الحاكمة للطاقة المبدعة قائلا:" تلك الطاقة التي لها من تأثير السحر على البروليتاريا ما يدفعها إلى التسامي عن طريق الاقتداء، ولكن ماذا يفعل الو ّ ار حين يفقد مهارته فيعجز عن إغراء أقدام حاضري الحفل عن الاستجابة بالرقص؟ إنه يحاول في صورة غضبه أن يفرض نفسه بالقهر على الجموع، فيستبدل بالمزمار سوطا يلهب به ظهورهم، من أجل

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ،ج 1، ص350.

[2]/ نقلا عن: هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا، ص42.

[3]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ،ج 1، ص413.

أن يحتفظ بمركز ليس جديرا به"[1]؛ أي أنه عندما تصبح الأقلية المبدعة عقيمة الإبداع تتحول إلى أقلية مسيطرة على المجتمع، ومن هنا تسقط هيبتها الإبداعية فتلجأ إلى استخدام كل القوى لتتمكن من البقاء والاستمرار في المركزية وذلك حسب تعبير كولون ويلسون " بوضع القوانين و التأكد من أن الجميع يتبعونها وباستخدام كل القوى الزعيم والمشر َع بالتأثير والإقناع و المخادعة والتشريع"[2]؛ وهذا ما يذكرنا بموقف مكيافيللي من الحاكم الذي تخو َل له كل الطرق سواء كانت سلبية أو إيجابية للاستمرار في الحكم والسيطرة[3].

ويدحض توينبي العديد من أفكار المؤرخين التي تُرجع انهيار الحضارات بسبب ما يعرف "بالتشيُّخ الكوني"* يقول:"ولقد درأيت مدارس الفلسفة المختلفة خلال انحدار الحضارة الهلينية وسقوطها على تفسير الانحلال الاجتماعي الذي كانوا يتوجعون له ولا يملكون حياله دفعا، لاعتقادهم بأنه نتيجة حتمية لا مناص عنها، لإغارة شاملة جامعة يشنها (تشيُخ كوني)"[4]، ويعارض توينبي كذلك اشبنلر الذي يشبّه الحضارة "بالكائن الحي"[5]، فحضارة الغرب من خلال وجهة نظر "اشبنجلر" عندما وصلت ذروة التقدم والتطور في أغلب الميادين، ومع بداية العصر الحديث ازدهرت الفلسفة وتوالت الكشوف العلمية، آلت بعد هذا إلى التدهور التام في القرن التاسع عشر وهو ما ينُبّأ بزوالها.

---

[1]/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص271.

[2]/ كولون ولسون، سقوط الحضارة، تر: أنيس زكي حسين، ط03، (بيروت، دار الآداب، 1982)، ص150.

3/ Machiavel Nicolas. Le Prince, TRADUIT de l'italien par Jean Vinont Peries, Algérie, Talantikit,2004,p162.

[4]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص414.

[5]/ أوزفالد اشبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، ج 1، ص12.

***التشيّخ الكوني:** بدأ دور الشيخوخة، إذ وصول الحضارة إلى هذه الدرجة يعني بداية انهيارها.(المرجع نفسه،ص272).

لكن؛ لو استوقفنا الزمن لحظة لوجدنا أن، معارضة توينبي لشبنجلر ليست كلية، بل نجد توينبي يوافقه في ميلاد الحضارة وازدهارها ومن ثم زوالها؛ فتوينبي يؤكد على أن انهيار الحضارات سببه المجتمع القاطن فيها، فهو الذي يجلب لنفسه عوامل الانهيار قبل أن يجلبها غزو خارجي فكما يقول صبحي:" إن أقصى ما يفعله الغزو الخارجي هو توجيهه ضربة قاضية إلى مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة"[1] إذ تُ ذكرنا هذه الجملة بالمنحى الذي سار عليه مالك ابن نبي فيما سماه" القابلية للاستعمار" حين صرح بأن العالم الإسلامي في أزمة وهي الركود وبالتالي يسهل على العدوان الخارجي من استعمار الأرض و الاستيطان فيها، واستبعاد أهلها.[2]

ويمكن أن نستخلص أن انهيار الحضارات عند توينبي سببه من ذات الحضارة وليس العدوان الخارجي أو الضربات الخارجية لأن النوابغ يتخلون عليها وهذا ما عبر عنه بما سماه:"HYBRIS" التي تتسبب في سقوط الحضارات والتي تعني الغرور أو التكبر، الأنانية...الخ[3]؛ ويمكن تلخيص أسباب انهيار الحضارات بجملة من النتائج التالية:

01/ ليس انهيار الحضارات من فعل القضاء والقدر.

03/لا يرجع الانهيار إلى الانحطاط في الأساليب الصناعية أو التكنولوجية.

03/ليس الانهيار نتيجة عدوان مهلك يشنه خصوم دخلاء.[4]

---

[1]/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 272.

[2]/ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 103.

[3]/ كولون ولسون، سقوط الحضارة، ص151.

[4]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج 2، ص01.

إذا كان يرفض الأسباب السالفة الذكر دليلا على انحلال الحضارات فإنه يحدد مظاهر الانهيار في اتجاهات كبرى وهي كالتالي :

ـ قيام الدولة العالمية على يد الأقلية المبدعة.

ـ قيام الديانة العالمية على يد البروليتاريا الداخلية و قيام حرب العصابات على يد البروليتاريا الخارجية.

رابعا: طبيعة ومظاهر التحلل الحضاري

تُعرج أقلامنا الآن إلى ما سماه توينبي" تحلل"؛ هذه المرحلة التي تكون بعد الانهيار فهو لا يتنبأ بقيام أو بناء حضارة مرة أخرى، وبالتالي مصيرها الفناء الحتمي الذي يقتل كل أمل في إمكانية التجديد الحضاري. فما الذي أدى في رأيه إلى اندثار الحضارات وانحدارها صوب التحلل؟

يقول توينبي:"بمجرد ما تنهار حضارة ما ستدخل بالضرورة في مرحلة التحلل فبعدما تفقد الأقلية المبدعة حيويتها الخلاقة تفقد أيضا قدرتها على أن تسحر الناس فلا تعود تعرف الألحان التي ترقص عليها بقية المجتمع هائئة، ويبدأ الانحلال"[1]. فكيف هو مظهر المجتمع عندما يصل إلى درجة التحلل؟ وما هي الأسباب التي جعلت الأقلية المسيطرة تفقد نفوذها وتؤدي بالمجتمع إلى التحلل ؟، ولهذا فإن ميزان التحلل الحضاري وفق توينبي هو الانقسام الاجتماعي إلى ثلاث:

[1]/ هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا، ص47.

أقلية مسيطرة تستبد المجتمع "ا و بروليتاريا داخلية" تكافح من أجل بقاءها أعطت ولاءها للسلطة، لكنها شرعت في سحبه تدريجيا بسبب استبداد جور الحكام" و أخيرا بروليتاريا خارجية تنتظر الفرصة للغزو[2].

وهذه الجماعات الثلاث لا تلتقي مع بعضها البعض حيث يقول ولسون:"تكره بعضها بعضا ويحاول الزعماء أن يتمسكوا بسلطانهم بصورة أشد في تقوقعها"[3].

ولكن السؤال الذي يتبادر لنا: كيف فقدت الأقلية المبدعة مقوماتها الإبداعية وتحولت إلى أقلية مسيطرة مستبدة؟ ولهذا يجيبنا توينبي بأن فقدانها للإبداع يرجع لعدة أسباب هي:

01/ **نبيذ جيد في أوعية قديمة:** يبرهن توينبي على انهيار وتحلل الحضارات متخذا من الكتاب المقدس دليلا عن ذلك قائلا:"ولا تجعلون خمرا جديدة في زقاق عتيقة لئلا ينشف الزقاق، فالخمر تسكب، والزجاج يتلف، بل يحملون خمرا في زقاق جديد"[4]،وإذا حاولنا كشف ما تخفيه هذه الآية وراء هذه السطور ـ حسب توينبي ـلو جدنا أنه على كل فئة مبدعة خلاّقة متميزة تريد أن تنهض بمجتمعها إلى الازدهار و التطور عليها أن تجد نظما جديدة تتلاءم مع مستوى الأفكار الجديدة التي هي أبدعتها حتى تستطيع أن تحقق مبتغاها، فإذا تجاوزت هذه الخطوة فإن مآلها فقدان قيمة الإبداع " فالفئة المبدعة تصب طاقتها

[1]/ كولون ولسون، سقوط الحضارة، ص 154.
[2]/ هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا، ص47.
[3]/ كولون ولسون، سقوط الحضارة، ص 155.
[4]/إنجيل متى ،الإصحاح التاسع ،الآيتان 16،17.

الإبداعية في قوالب جديدة ونظم قديمة مع أنه يجب أن تصب هذه الطاقات الروحيةفي نُظم جديدة"[1] لأن النظم القديمة تكون عادة عكس النُظم الجديدة ومحاربة لها.

02/**آفة الإبداع: عبادة فانية**:توضح هذه الفكرة أن المبدع عندما يواجه تحد صعب ويُحقق استجابة ناجحة خلاّقة تصبح الجماهير مفتتنة به وتحاول محاكاته، وتصل بهم إلى درجة تقديسه، وهذا ما ينبذه توينبي لأن هذا المبدع الخلاّق عندما يواجه تحديات فإنه لن يأتي بجديد، بل سيستعرض نفس الموقف الذي كان قد نجح به سابقا، لكن الجماهير تبحث عن الإبداع الجديد مع الموقف الجديد. يقول:يُظهر التاريخ أن الجماعة التي تستجيب بنجاح إلى تحد واحد ناذرا ما تستجيب بنجاح إلى التحدي التالي"[2] والدليل على ذلك اليهود بعدما استجابوا للتحديات الواردة في العهد القديم ينهزمون أمام التحدي الذي أبرزه العهد الجديد لكي يصبح كالتالي:اختراع←انتصار←جمود←نكبة أو هزة.

03/ الحرب نزعة انتحارية وطريق إلى الدمار: تبين فيما سبق أن سبب نشوء الدولة العالمية هو التدهور الداخلي للحضارة مما يؤدي بها إلى توسع نفوذها قدر الإمكان من أجل أن تغطي ذلك الضعف في الأزمات التي تعرّضت لها ويدلل توينبي عن ذلك بمحاولة القادة الهللينيين الكبار أمثال الإسكندر الأكبر أنهم تسببوا في جرّ الدمار لحضارتهم، إذ أنه إثر وفاة " الاسكندر"لم تلبث الأمجاد التي أفنى حياته في سبيلها و التي كان ثمنها جهود عهدين زاهرين متتاليين من زمن الحضارة التي انحلت إلى الفساد و الفوضى [3].

[1]/ هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا، ص77.
[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج 2، ص481.
[3]/أرلوند توينبي، تاريخ الحضارة الهللينية، ص 135.

04/**<u>التقدم المادي كمسلك خدّاع لاستجابة ناجحة</u>**: يؤكد توينبي بأن التوسع الحضاري الذي يكون عن طريق الحروب ليس هو الوحيد الخدّاع للتقدم والارتقاء وإنما يُضاف إليه سيطرة الإنسان على البيئة المحيطة به ويكون ذلك على شكل تطورات تكنولوجية على جلّ الميادين، وهو ليس دليل على رقي المجتمع " لأن الأسلوب التكنولوجي ديناميكي الطبع وليس من الضروري أن يصاحب الإبداع الروحي الفكري وجودا أو عدما؛ فالارتقاء الحقيقي إنما يتمثل في الارتقاء الروحي"[1] ذلك أن الأسلوب التكنولوجي تطبيقي وفان، إذ يكون عقبة رئيسية في التقدم الحضاري مثل ما هو يحدث في أوربا من تقدم تقني واضح في أغلب الميادين وهو ما حذّر منه توينبي عندما بيّن عيوب التقدم الغربي التكنولوجي "الذين أخذوا من الحضارة الغربية بنصيب غير قليل، وبهرتهم هذه الحضارة وافتتنت بها نفوسهم (...) أن لا يظنوا أن هذه الحضارة خير كلها فلها عيوبها التي لا يجد أبناؤها أنفسهم مفرا من الاعتراف بها"[2].

ونخلص إلى أن الحضارة عند توينبي تتحلل بعدما تنهار وتكون الفئة المبدعة مسيطرة بالكامل عليها وبالتالي لا تقوم لها قائمة بعد ذلك والدليل اندثار الحضارات التي كانت موجودة وعدم قيامها مرة أخرى[3].

ومن بين انشغالات توينبي بدراسة الحضارات نجده يعطي قسطا من التفكير في الحضارة الإسلامية التي حاول دراستها وفق نظرية التحدي والاستجابة وهو ما يخولنا لطرح التساؤلات الآتية: كيف نشأت الحضارة الإسلامية؟ وما هو الوضع الذي عاشته قبل الرسالة المحمدية؟ ما هي أهم معالم ازدهارها ؟ و أهم العوائق التي واجهتها؟ وكيف يمكننا إسقاط هذه النظرية على واقعنا العربي الإسلامي؟ وما هي الاستجابات التي قدّمها هذا المجتمع ؟ هذا ما سنوضحه فيما يلي:

---

[1]/ أحمد محمود صبحي،في فلسفة التاريخ، ص176.

[2]/ نقلا عن: هدى بو فضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا، ص52.

[3] /المرجع نفسه، ص52.

المبحث الثالث: تطبيق نظرية التحدي والاستجابة في المعطى التداولي العربي الإسلامي

يـُبحر بنا توينبيـ ّ ة أخرى في عالم أفكاره الواسعة في دراسته للحضارة العربية الإسلامية، باعتبارها هي الأخرى شاركت في صنع تاريخ الحضارات البشرية؛ وقد حاول توينبي تطبيق نظريته على الحضارة الإسلامية،وتوضيحه كيف نشأة وتطورت والعوائق التي واجهتها مثلها مثل الحضارات الأخرى، ولذلك إذا أردنا أن نبيـّن ولوج هذه الحضارة إلى العالم حسبه، فإن شغفنا في البحث لا يمنعنا من دراسة المراحل التي مر ّت بها الحضارة الإسلامية العريقة، من قبل مجيء الرسالة المحمدية، ثم دراسة أطوارها نشأة نموا، ازدهارا.

أولا: ميلاد الحضارة الإسلامية:

يقول غوستاف لوبون:" رأى الكثيرون أنه لا تاريخ للعرب قبل ظهور محمد، وحجتهم في ذلك أن العرب قبل ظهوركانوا مؤلفين من قبائل عاطلة من العـَذ ْعـَنات،كانوا من الأجلاف التي لم تعِ ذاكرة الإنسان شيئا عنهم"[1] ؛ فهذا القول ينفي وجود حضارة عربية إسلامية، أو أنها لم تكتب ضمن كتب التاريخ، ولم يشهد التاريخ على وجودها،ولكن كيف للتاريخ أن يـُهمش هذه الحضارة العميقة والدلائل الملموسة واضحة المعالم، فنشوء الحضارة العربية الإسلامية هو كبقية نشوء الحضارات الأخرى التي

[1]/ غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، (القاهرة، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، 2012)، ص91.

خلّدت التاريخ "فللعرب ما قبل تاريخهم مثل ما للأمم الأخرى"[1]؛ ولهذا فهي قد واجهت قبل ظهور الرسالة المحمدية في شبه الجزيرة العربية عموما، وفي مكة موطن (الرسول صلى الله عليه وسلم) خاصة تحديات بيئية طبيعية قاسية، وتحديات بشرية صعبة.

أولا : التحديات التي واجهت مجتمع شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام:

يمكننا تقسيم هذه التحديات وفق نظرية التحدي و الاستجابة إلى نوعين من التحديات:

01/ تحدي البيئة الطبيعية:

يؤكد توينبي أن مجتمع شبه الجزيرة العربية قد واجه تحديات بيئية طبيعية، تستلزم استجابة ناجحة من أجل تجاوز هذه الأزمة، ولذلك فهو يصفها قائلا: "وشبه الجزيرة العربية هي شبه قارة، فمن حيث المساحة هي في حجم جزيرة الهند وأوروبا. ولكن العكس منها فهي جافة، باستثناء المرتفعات القائمة في زاويتها الجنوبية الغربية(في اليمن وعسير) (...) إلا أنها بعيدة عن متناول الأمطار الموسمية، وليست مكة معدومة المطر، ذلك أن استمرار السكن فيها يعود إلى وجود بئر دائمة فيها، إلا أن ثروتها المائية. لم تمكّن لسكان مستقرين أن يحصلوا على قوتهم من الزراعة أو حتى من رعي الحيوان، وهو المصدر الوحيد للعيش والذي ظلّ حتى فترة قصيرة يعتمد عليه القسم الأكبر من سكان الجزء المعمورة منها وجماعة مستقرة تقيم حول بئر مكة(زمزم) يعيشون على التجارة، وكان من الضروري أن يقوم فيها نوع من التقديس الديني من البدو والتي تغريهم الظروف بأن يتقاضوا مغارم كثيرة من قوافل التجار"[2].

---

[1]/ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص 93.

[2]/ أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، ج2، ص451.

ولعل ما جعل بعض المؤرخين يصرّحون بتأخر حضارة العرب هو مناخها الصعب الذي تتميز به باعتبار مناخها صحراوي بالدرجة الأولى والأمطار فيه قليلة حيث يقول "أحمد أمين" في هذا الصدد "ومناخ جزيرة العرب ـ على العموم ـ شديد الحرارة يعتدل الليل في أراضيها المرتفعة صيفا ويتجمّد ماؤها شتاءا و أحسن هوائها الرياح الشرقية وتسمى الصَّبَا، وأحسن أيامها أيام الربيع، وهي تعقب موسم المطر فينبت الكلأ و العشبْ ، ترعى الإبل والماشية."[1] فجميعهم عاشوا حياة البدو الرحّل الذين لا يستقرون في مكان واحد كما يفعل الزرّاع، بل كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بحثا عن العيش الرغيد، ولهذا كانت ردود فعل سكان الجزيرة تتخذ احد الشكلين:

01/ الهجرة خارج الجزيرة إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام، وقد استطاع هؤلاء المهاجرون العرب القدماء إقامة مستوطنات دائمة لهم في بلد الشام وبلاد الرافدين، وأسسوا حضارة عريقة خارج موطنهم الأصلي.

02/البقاء في الجزيرة ومحاربة كل الظروف الطبيعية القاسية التي تقف في وجه المتحدّي مثل قريش التي استوطنت مكّة المكرمة ومارس أهلها التجارة، ويثرب التي اشتهرت بأرضها الزراعية الخصبة، وأما باقي سكان جزيرة العرب، فقد ظلوا يعيشون حياة البداوة، بعيدة كل البعد عن مظاهر الحضارة.

ولكن أرلوند توينبي لا يرى في التحدي الخاصة بالبيئة الطبيعية العوامل الرئيسية في النهوض بالحضارة الإسلامية،بل ركّز على الظروف البشرية، وهو ما سنوضحه فيما يلي:

[1]/ أحمد أمين، فجر الإسلام، ط3، (بيروت، دار الكتاب العربي، 1929) ، ص 04.

ثانيا: تحدي الظروف البشرية

إن هذا النوع من التحدي الذي سنتناوله بالدراسة الآن هو الذي يراه توينبي من أكبر التحديات التي واجهتها الجزيرة العربية آنذاك، ونظرا لاتصالها بالأمم المجاورة، الذي كان بطرق متعددة كالجوار وإنشاء المدن العربية المتاخمة لكل من فارس والروم؛ مما جلب لها عوامل العيش[1]، ولكن في نفس الوقت كان اتصالها هذا قد عرّضها للغزو العسكري والثقافي من طرف الإمبراطوريتين الذي كان يُستلزم أن يُلاقي استجابات ناجحة؛ كي يمكنها للانتقال من حالة الركود السلبية إلى حالة الحركة الإيجابية الفاعلة؛ وهذا ما ينفي قول البعض بأن شبه الجزيرة العربية لا علاقة لها بجيرانها، نظرا لموقعها الجغرافي وحالتها الاجتماعية:شاع بين الناس أن العرب في جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أيّ اتصال؛ وأن الصحراء من جانبوالبحر من جانب آخر وجعلها منقطعة عمّن حولها، لا تتصل بهم في مادة، ولا تقتبس منهم أدبا ولا تهذيبا"[2]، والحق أن هذه الفكرة خاطئة، وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا ومعنويا،وإن كان ضعيفا؛ فالعرب القاطنون في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لم يأخذوا من الأمم المجاورة لهم مناهج أو دواوين كاملة، بل غرفهم كان محدود ويقتصر على بعض القصص و الحكم، نظرا للوضع الثقافي المزري الذي كانت تعيشه خاصة الأمية، لذلك كان الفارق واضح للأبصار من حيث التطور المعرفي والاجتماعي وحتى الموقع الجغرافي. ويذهب توينبي إلى أن الحضارة الإسلامية نشأة وفق فلكالأرثوذ ّ ة والنبو ّ ة، باعتبارها مزيج بين المجتمع العربي و الإيراني وهما وليدا المجتمع السوري

[1]/ أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 12.

[2]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج2، ص 208.

حيث يقول:"كان الإسلام، الدين العالمي الذي اتصل عن طريقه المجتمع السوري في نهاية المطاف بالمجتمعين الإيراني والعربي اتصال الأبو ّ ة"[1].

ولكن إذا حاولنا أن نستقرأ ما وراء فهمه هذا، لوجدناه يقصد بأن الحضارة الإسلامية عنده من أصل سرياني،و هوما يـُعاب على هذا الفهم، فالحضارة الإسلامية لها ما يميزها عن باقي الحضارات المجاورة. ولكن لا ينفي إبداعها الذاتي، فالمنتج الخارجي الذي تبنته لم تستثمره كما هو، بل أضفت عليه اللمسة العربية التي تعبر عن هويتها، ولهذا فإن الحضارة الإسلامية قد حققت استجابات رسمت لها ميلادها حيث أنها واجهت تحديين حسب توينبي و سنخصهما بالذكر:

التحدي الأول خارجي دوليويتمثل في جلّ المؤثرات التي خلّفها الغزو الثقافي الذي مارسته كلا من الإمبراطوريتين الفارسية و الرومانية، على شبه الجزيرة العربية.أما عن؛

التحدي الثاني محلي: كان في مكة التي كان سكانها يعانون فراغا روحيا واضحاولكن سـُجلت نقطة تحول طرأت على سكانها وهي مولد النبي: محمد صلى الله عليه وسلم"الذي ملأ الفراغ برسالته المحمدية(الإسلام)، باعتبار هذا الأخير " جوهر الحضارة الإسلامية؛ أي أن الله هو الخالق الواحد ورب الكائنات جميعا"[2] وعلى حسب ما يزعم توينبي أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قد مر بمرحلتين هما (الاعتزال و العودة)، فالأولى تعني اعتكاف الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غار حراء حتى نزل عليه الوحي، أما العودة فهي المهمة التي أُوكلت للرسول وهي نشر الدين الإسلامي في بقاع الأرض، التي

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج2، ص 209.

[2]/ إسماعيل راجي الفاروقي و لوس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط1، (الرياض، مكتبة العبيكان، 1998)، ص 131.

لاقت الرفض من العديد من القبائل أمثال قريش، ولكن ما لبث الرسول حتى نجح بنشرها، ولهذا يمكننا أن نقول أنهاتجابة ناجحة عندما و ُ فق الرسول في سد ع ُرى الحرب في يثرب ما بين الأوس و الخزرج "بحيث لم يستطع الرسول أن ينتقل بالأمة من جاهلة إلى متحضرة فقط، بل تدفق الإسلام من شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السهب الأوراسي"[1].

ومن هنا كانت مرحلة نشوء الحضارة الإسلامية، ضف إلى ذلك الاستجابة التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي "غزوة بدر" التي هاجم فيها المسلمين مشركي مكة(قريش)، ولهذا فهي مرحلة مفصلية عند المسلمين. لكن ما يهمنا الآن هو : كيف كانت عملية الارتقاء و النمو الحضاري في الحضارة الإسلامية؟

ارتقاء ونمو الحضارة الإسلامية

تعد حضارة الإسلام باهرة ، ولا ريب في ذلك إذ تُعد إرث مشترك بين جميع والأمم التي انضوت تحت لوائها، وشاركت في بنائها، وأسهمت في عطائها، وهي الشعوب والأمم التي كونت وشاح الأمة الإسلامية ونسيجها المحكم، ومن هنا نتساءل كيف تمكنت الحضارة الإسلامية من الارتقاء والنمو الحضاري في ظل نظرية التحدي والاستجابة ؟ بمعنى آخر:ما هي التحديات التي واجهت الحضارة الإسلامية ؟ وما هي أبرز الاستجابات التي أسفرت عن هذه التحديات؟

وللإجابة، نرى أن أول تحد واجه المسلمين هو: وفاة الرسول الكريم " صلى الله عليه وسلم" وما نتج عنه من خلافات على من يخلفه ومن يستحق هذا المنصب، وهذا فيلظأنه لا يوجد خلف صريح أقر ّ

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج1، ص381.

به "الرسول صلى الله عليه وسلم"، ويجب على من يخلف الرسول أن يكون عالما بأمور الدين والدنيا معـا، ولذلك اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة حول الخلافة،وبعد الحوار والمداولة حُسم الأمر وتم الإجماع تقريبا على خلافة الصحابي الجليل" أبي بكر الصديق"بحكم أنه تتوفر فيه جلّ خصال الخلافة لأنه أول من دخل في الإسلام، كما أنه أمّ الصحابة في الصلاة وقت مرض الرسول[1]، وهي استجابة ناجحة بحق.

وهناك تحدي آخر يمكن أن نشير إليه والذي لاقى استجابة ناجحة، وهو تحدي "أهل الردة"* حيث تمكن الخليفة الصدّيق من مواجهتهم والانتصار عليهم وكل من ادعى النبوّة أو التطاول على الدين الإسلامي. ومن هنا عمّ السلام في الرقعة الإسلامية وبدأ المسلمون ينشرون الرسالة المحمدية عبر بقاع الأرض وهو ما تمثل في "الفتوحات الإسلامية" حيث يقول توينبي:"وسرعة الفتوح التي تمت على أيدي الدولة الإسلامية ومداها أمران يدعوان إلى الإعجاب "[2]؛ لكن ما هي أبرز التحديات التي وقفت في وجه الفتوحات الإسلامية ؟

---

[1]/زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص 111.

[2]/ أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، ج01، ص458.

***أهل الردة (حروب الردّة)**: هي سلسلة من الحملات العسكرية التي شنها المسلمون على القبائل العربية التي ارتدت عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في الفترة الممتدة بين سنتي 11و12 الموافقة 632و633 م وقد ارتدت العرب في كل قبيلة باستثناء أهالي مكة والمدينة المنورة.(محمود عبد الله أبو الخير، ديوان حروب الردة، ط1،عمان، دار جهينة، ص5).

وقعت عدة تحديات على مستويين المستوى السياسي والعسكري وهو الأمر الذي أوقف استمرا ر الفتوحات على أربع جهات حسب رأي توينبي وهي كالآتي :

1عدم إقامة مراكز ثابتة إلى شمال سلسلة جبال طوروس وا ٍقامة مراكز مؤقتة في جبال لبنان 677 فتوقفت الفتوحات العربية عند جبال أمانوس (وهم سكان يعتبرون أعداء في نظر البيزنطيين).

2ـ لم يستطيعوا احتلال القسطنطينية وفشلوا، فقد حاول معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية محاصرتها وأنشأ أسطولا قويا ولكنه فشل (661_680).

3ـ قوة بلاد الغال 732.

4ـ عجزهم على فتح إمبراطورية البدو والخزرج(بين نهري الفولف والدون) في سنة 737ـ 738م.[1]

ولكن استطاعوا تجاوز هذه التحديات فيما بعد، إذ نجد مثلا استجابات ناجحة كالوقت الذي سقطت فيه القسطنطينية على يد السلطان العثماني "محمد الفاتح" 1453 بعد استخدام خطة ذكية ومدافع متطورة وهذا مثال واضح على قدرة إبداع القادة المسلمين للاستجابات ناجحة، و ترتب على ذلك اتساع رقعة الخلافة العباسية.وكانت الاستجابة الناجحة قد ظهرت على عدة مستويات ونذكر منها:

فعلى الصعيد السياسيكان لابد من حسن تنظيم شؤون الحكم والتجهيز المـ ُرتب واللازم للدواوين.

أما على الصعيد الثقافي: فنلمس ذلك الاتصال والاحتكاك للمسلمين بثقافات الأخرى (من يونانية وفارسية وسريانية وغيرها) وهذا ما تمثل في نشأت دار الحكمة في بغداد.

[1]/زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص 112.

أما على الصعيد الاقتصادي: فلقد أًصبح المسلمون يمتلكون مساحات من الأراضي الخصبة وذلك من خلال الفتوحات الإسلامية، بالإضافة إلى الجزية التي يدفعها من أهل الذمة.[1]

وبذلك نلاحظ أن هذه التحديات الكبرى والصعوبات التي واجهت المسلمين أفرزت عنها استجابات ناجحة التي أعانت المسلمين على استمرار وبقاء ونمو الحضارة الإسلامية وازدهارها، فكانت تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هي دستورا دنيا ودنيويا ينظم شؤون المسلمين. ولكن هذا وحده لا يكفي فقد ظهر في العهد العباسي وخاصة في عهد المأمون و المعتصم بذور الفتن والانشقاقات وسيطرة الأجانب على (الفرس) على الحكم في خلافته، وكان بداية دخول الحضارة الإسلامية في مرحلة الأزمة، بالإضافة إلى الغزو الصليبي الذي جعل الحضارة الإسلامية في ذروة التأزم. فما هي الأزمات التي واجهتها؟

أزمة الحضارة الإسلامية

يؤكد توينبي أن الأزمة التي بدأت تعصف بالحضارة الإسلامية في زمن الخلافة العباسية بقوله"ففي العصر الدولة الأموية، على ما كان بين الزعامة من تناحر، استمر العرب في توسيع رقعة الإمبراطورية فتحا حتى قاربت شمس الدولة على المغيب. لكن العباسيين لم يستسلموا حتى الإمبراطورية نفسها كاملة. ففي سنة 756 نجح عبد الرحمان الداخل في تكتيل العرب في الأندلس حوله، وكانوا قد رفضوا قبول الدولة العباسية أصلا(...) وقامت دولة الأغالبة* في تونس سنة 800، والتي ظلت تعترف

---

[1]/زياد عبد الكريم الذّجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص 113.

* **الأغالبة:** أو بنو الأغلب سلالة عربية من بني تميم حكمت في المغرب العربي (شرق الجزائر وتونس وغرب ليبيا) مع جنوب ايطايا وصقلية وسردينيا وكوسيكا ومالطة فترة الحكم 800.909 م.(موقع قصة الإسلام، راغب السرجاني INDO@ISLAMSTORY.COM التاريخ:2013/05/27، الساعة: 16:20).

بولاء اسمي للخلافة العباسية حتى حلت الخلافة الفاطمية مكانها (909)، والتي كانت تنكر على العباسيين شرعيتهم في الخلافة وأملت أن تحل محلهم في العالم الإسلامي"[1]. ومن هذا المنبر نبرز أهم نقاط التي كانت سبب في انحطاط المسلمين عموما:

1/ الملك هو المسؤول الأول عن قوة الدولة ورقيها وعن ضعفها وانحطاطها [2]. وذلك بما يسلكه من سلبيات وهذا ما ظهر عليه في العهد العباسي في عصر المأمون والمعتصم بالله حيث أصبحت خارجية (الأتراك واليونان) تحكم وتسير البلاد وكان تسليط الفئات غير العربية على أجهزة الحكم في هذا العصر دور رئيسي في زعزعة أمن واستقرار الدولة وهذا ما برز في عصر المأمون المعتصم.

2/ بعدما كانت تلك اللحمة بادية في أوساط العرب تغيرت إلى حروب داخلية فيما بينهم، نظرا للخصومات التي كانت تنشب في قلب الحضارة الإسلامية، وهو ما أسفر تقسيمها وانشطارها حتى سقطت، كما حدث لهم في اسبانية وصقلية[3] اللتين أضاعوهما، حيث أدى ذلك إلى انتقال العلم الإسلامي إلى أوربا وضعفت الثقافة الإسلامية بسبب ذلك[4]. وبالتالي لا يكون الغزو الخارجي إلا الضربة القاضية لحضارة تلفظ أنفاسها الأخيرة .

ونتيجة لما ذكرناه عن أزمة الحضارة الإسلامية فإنه بدا لنا واضحا ذلك التفكك في آخر أيام الخلافة العباسية ـ على حسب تعبير توينبي ـ وهذا راجع لعجز المبدعين آنذاك عن تقديم الاستجابات الملائمة

---

[1]/ أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، ج2، ص 480.

[2]/ صائب عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ـ دراسة مقارنة بالمدارس الغربية الحديثة والمعاصرة ـ ط2 (لبنان، دار ومكتبة البصائر، 2014)، ص 261.

[3]/ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص632.

[4]/ إبراهيم سليمان عيسى، من جوانب الحضارة الإسلامية، العدد 19 (تصدير ة كل شهر عربي، القاهرة، 1997م) ص 31.

لحجم التحدي، ولذلك إذا أردنا أن نرسم طريق أو خطة للخلافة العباسية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، فسوف نجد الشكل الآتي:

1/فئة مسيطرة مستبدة: وهاته الفئة لم تعط حلول مناسبة واستجابات ناجحة للتحديات، رغم وجود بعض الاستثناءات مثل صلاح الدين الأيوبي[1].

2/بروليتاريا داخلية: وهي الفئة التي لا تشعر بالانتماء إلى الخلافة العباسية و التي تكيد لها، وذلك من خلال الثورات والعداءات والفتن الداخلية فعملها هو التفرقة، وهذا ما أثقل كاهلها وزاد مشاكلها.

3/بروليتاريا خارجية: وتمثلت في كل من المغول والحملات الصليبية اللتان يسعيان إلى السيطرة على الخلافة العباسية وخاصة بلاد الشام وعلى رأسها "القدس الشريف". وهكذا تتضح خارطة الخلافة العباسية وهي في مراحلها الأخيرة، حيث أصبحت في صورتها النهائية كما يلي :

1 الدولة الإسلامية العالمية : وهي الخلافة العباسية في بغداد.

2 النظام الديني العالمي: هو الدين الإسلامي.

لكن الأمر الذي أعجب به توينبي كثيرا هو أنه على الرغم من الفشل والتقسيمات والحملات الصليبية إلا أن الدين الإسلامي استمر في الانتشار وهذا يعتبره انجازا رائعا ولذلك اعتبر ه دينا عالميا.

[1]/ زياد عبد الكريم النجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص 126.

ومن هنا لا نستطيع القول أن الحضارة الإسلامية قد انهارت وضعفت، بل نصل إلى القول والاقتناع بأن الحضارة الإسلامية في هذه المرحلة من التاريخ هي في حالة تأهب حضاري للانطلاق نحو استئناف دورة حضارية جديدة مع الألفية الثالثة[1].

المبحث الرابع: مقترحات توينبي لإنقاذ الحضارات

لقد سعى توينبي إلى القول بإمكانية إنقاذ الحضارات من الفناء وذلك وفق عاملين هما: "الابتعاد عن الحرب" و العودة إلى الدين". ومن هنا يطرح التساؤل التالي: هل القوانين التي تمر بها الحضارات هي قدر محتوم لا مفرّ منه؟ أم أنه يمكن إنقاذها من هذا المصير المفاجئ وهو الانهيار والاندثار؟

أولا: <u>الابتعاد عن الحرب</u>:

توصل توينبي إلى أن السبب المباشر الذي يراه في انهيار الحضارات التي زالت من قبل هو:"**الحرب**"، إذ يقول:" وبعد دراسة مقارنة انهيار الحضارات المعروفة،تبيّن أن الانهيار الاجتماعي مأساة مفتاح عقدتها مؤسسة الحرب، ولعل الحرب هي حقا في آخر تحليل بنت الحضارة، مادامت إمكانية خوض غمار الحرب تفترض حدا أدنى من التقنية والتنظيم، كما قد تفترض الثروة على ما هو ضروري كل الضرورة للعيش، ولكن الإنسان البدائي قد أعوزه هذان العصبان الخاصان بالحرب، كما أننا لا نعرف من جهة أخرى أية حضارة (ربما باستثناء حضارة المايا) لم تشكل الحرب فيها سلفا مؤسسة قائمة وسائدة في أبعد عصر يمكننا الرجوع إليه من تاريخها" [2].

---

[1]/ زياد عبد الكريم النجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، ص 127.

[2]/ أرلوند توينبي، الحرب و الحضارة، تر: فؤاد أيوب، (دار دمشق، 1950)، ص 07.

ويقصد توينبي بأن الحرب بنت الحضارة؛ ذلك أن الحرب يحكمها عاملان أساسيين هما:01 التقنية والتنظيم؛02 الفائض من الثروة؛ فهذان العنصران لا يمكن أن يتوفران إلا في حضارة تمتاز بالرفاهية والحبكة في التخطيط للأمور، وهذا ما لم يكن في الشعوب البدائية لأنها كانت تعيش حياة البدو المتوحشة، فالحرب هي السبب الرئيسي في انهيار الحضارات وزوالها، وهو ما تجلى في نبذه "لغزوة بدر" التي قام بها "الرسول صلى لله عليه وسلم" والمسلمين ضد الكفار؛ إذ افترض لو أن الرسول الكريم اتخذ حلا سلميا بدل الحل العسكري، لأنه حتما يؤدي إلى دمار الحضارة الإسلامية، ذلك أن الحرب تؤدي إلى تفكك العلاقات الاجتماعية، وتسبب في تشتت أفراد المجتمع،وهذا ما أكّده مالك بن نبي في كتابه ميلاد مجتمعالذي بيّن فيه كيف كان الاستعمار الفرنسي عاملا قويا في تشتت تلك القومية بين الجزائريين "[1] فمن مارس الحرب على مجتمع ما متخذا كل الوسائل العسكرية للدمار فإنه سيأتيه يوما ويواجه نفس المصير إذ يقول:" وأن حامل السيف لا يمكن أن يبني حضارة أو ينقذها من الدمار، ومن يضرب بالسيف يقتل بالسيف، وذلك هو القانون الصارم للحياة الواقعية، وليس إيمان حامل السيف بظفر نهائي سوى وهم خالص"[2].

فعند وصول الفئة المبدعة إلى درجة التخمة أو الدمار يتوسع مجال الحرب متجسدا في إنشاء إمبراطوريات من طرفها، خصوصا وأنها فقدت قدرتها على الإبداع إذ فقدت أيضا ثقة الجماهير بها بعدما كانوا يحاكونها لدرجة التقديس نظرا لإبداعها الخلاّق، ولكي تغطي هذه الفئة ما أصبحت عليه، تلتجئ إلى الحرب لإطفاء غضب الجماهير، ومن هنا يدخل المجتمع حالة الاضطراب والفوضى والتدهور

[1]/ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، ج 01، ط 02، (دمشق، دار الفكر، 1962)، ص 78.
[2]/ أرلوند توينبي، الحرب والحضارة، ص165.

الداخلي؛ ولكي نوضح أكثر نجد حتى ديننا الحنيف يُصرّح بأن الترف والتخمة هو سبب انهيار الأمم فأول مطرد دعوة الأنبياء هم المترفون إذ يقول الله عزّ وجل في كتابه الكريم:"وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون"[1]، فالترف والتخمة يقصي القلوب ويرجحها إلى التراجع عن قيمتها.[2] ، ويؤكد أيضا "كولون ولسون" أن سبب تحلل الحضارات هو إعداد الشعب لجيش قوي لمواجهة البرابرة الذين يهددون حدودهم، وبهذا يصبح الشعب ذو نزعة عسكرية حارقة، وبما أن العقلية الحربية لا تتميز بالعمق؛ أي ليست أساس جيّد للحضارة، فهذا يؤدي إلى منع الشعب من الاستجابة للتحديات التي تتطلب الشعور بالخطورة " بالإضافة أنها تضغط على اللامنتمي* وتُحاول أن تسلكه في النظام العسكري وهكذا فإن الحضارة التي تقضي على لا منتميها و تتحطّم" [3].

ثانيا: <u>العودة إلى الدين:</u>

بعد دراسة توينبي لمراحل الحضارة نجده يُحلل كيف قُدّر لهذه الحضارات أن تنهار بالرغم من وصولها لذروة التطور، ولكن للأسف وصولها لهذه الدرجة هو الذي يجعلها تنهار، إذ يوضح لنا أنها في مرحلة الانهيار تسير في اتجاهات ثلاثة رئيسية هي:

01/ فئة مبدعة التي كانت سبب في ارتقاء الحضارات وهاهي الآن سبب في تدهورها بتحولها إلى قوة مسيّطرة تتخذ في تأسيس دول عالمية (إمبراطورياتها) جـ ّة لتغطي إخفاقها.

---

[1]/ سورة سبأ، آية، 34.

[2]/ محي الدين صالحي، كيف تهيأت الجزيرة العربية لميلاد الحضارة الإسلامية،www.info/vb/showthread التاريخ:2015/04/13، الساعة: 21:01.

[3]/ كولون ولسون، سقوط الحضارة، ص151.

* **يقصد ولسون بلا منتمي:** إنسان اليوم العاصي للحضارة الحالية الغنية ماديا لانعدام الجانب الروحي.

02/ بروليتاريا داخلية: هدفها تأسيس ديانة عالمية.

03/ بروليتاريا خارجية: تتميز بدور البطولات والفنون.

بحيث إذا أمعنا النظر في هذه الاتجاهات نجدها، تأخذ طريقها عندما تكون الحضارة في حالة الانهيار و التحلل، حيث تنشغل الأولى بتأسيس دولة عالمية، لتكون الثانية مهتمة بتأسيس ديانة عالمية وبعيدة كل البعد عن المجال السياسي ومهتمة بالمجال الديني، ولهذا تجد البروليتاريا الخارجية الفرصة للسيطرة و السلطة في أي لحظة، لذلك يقول توينبي:" تولد الأديان العليا في عصر الاضطرابات الذي يلي انهيار الحضارة وتتطور في الإطار السياسي لدولة عالمية"[1]، ذلك أن الأديان العالمية* تنبثق من رحم البروليتاريا الداخلية؛ أي أن هذه الديانة العالمية تسعى للتسامي على باقي الأديان الأخرى، سماوية كانت أو وضعية،وأيضا لتحكّمها بمصير الحضارة."

فهذا الانزياح للدين الذيميّز توينبي نجده أيضا عند "أوزفالد اشبنجلر"حين وضّح لنا دور الدين في الحضارات، ولما لا وهو من التيارات الكبرى التي أثرت فكر توينبي ، ذلك أن "اشبنجلر" يرى في الدين بأنه ربيع كل حضارة، الذي يجدد الشعور بالخوف من وجود الله في هذا العالم بشكل مستمر، بل و أن الدين مهم في جميع الحضارات وليس فقط الحضارة الغربية[2].

[1]/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج 1، ص 455.

* توينبي لا يقصد بالأديان على أنها سماوية بمعناها السطحي،وإنما لأن كل منها يصبو إلى العالمية، ولكي تكون أكثر انتشارا على وجه الأرض.

[2]/ جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أوزفالد اشبنجلر، ص72.

وفي خاتمة هذا التفسير نجد أن "أرلوند توينبي" يركز على من يريد إنقاذ الحضارات من الزوال و الأفول يجب أن يبتعد كل البعد عن الحرب وكل ماله علاقة بالقوات العسكرية المدمرة، لأنها تثقل كاهل الحضارة وتدمرها وتحللها ولا تُبقيأثر يدل على أن حضارة و ُجدت على وجه الأرض يوما مـا، بالإضافة إلى إمكانية العودة إلى الدين كونه ينعش الشعور بالواجب وأن لكل حضارة قائمة على عقيدة دينية تعبر عن هويتها الوجودية، وعن طريق الدين تتصل الحضارات بصلة النسب مع حضارات أخرى تعد من نفس نسبها، وبالدين تُنار قلوب البشر بأنوار الرب، و وتبذل الذات الجهد الجهيد لتتوافق مع الله مثل ما حدث في الحضارة الإسلامية بعد مجيء الرسالة المحمدية التي تدعو إلى الإسلام كدين واحد، فإذا اتحدت الأديان و أصبحت عقيدة واحدة، يمكننا أن ننقد مصير الحضارات من الفناءكالحضار ة الغربية على . حدّ تعبيرهبالرغم من أنه لا يتحمّس لهذه الفكرة في الحضارة الغربية، لأنه لو حدث هذا فسيكون في العالم لآخر[1]

[1]/ جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أوزفالد اشبنجلر، ص72.

خـــــاتـــمـــة

الـخـاتـمة

من خلال دراستنا لنظرية التحدي والاستجابة بمعناها ومدلولها ومحاولة منّا لتبيين تفسير توينبي لنشوء الحضارات وتعاقبها وتطبيقها على الحضارة الإسلامية كنموذج وفق ما تنصه هذه النظرية، وبعد المناقشة والتحليل حاولنا أن نستخلص أهم النتائج التالية:

- محاولة توينبي التوفيق بين الاتجاهات الفلسفية التاريخية القديمة والحديثة والمعاصرة، مما أنتج فلسفة للتاريخ.
- تنوع المناهج التي اعتمد عليها أرلوند توينبي مما أنتج نسق تاريخي مزدوج بين ما هو علمي فلسفي ومنها ما هو لاهوتي.
- مرجعيته من الفكر الصيني في نظرية التحدي والاستجابة، باعتبارها الدور الفعال في تفسير التاريخ ومقارنة الحضارات فيما بينها.
- قانون التحدي والاستجابة هو قانون تحول المجتمعات من حالة البدائية المتوحشة إلى الحالة الحضارية؛ أي التحول من الين إلى اليانج(من الركود إلى الحركة).
- اعتبر أرنولد توينبي الحضارة هي وحدة الدراسة التاريخية وذلك من خلال إحصائه لإحدى وعشرين حضارة ناجحة وحضارات أخرى عقيمة متعطلة لم تستجب للتحديات التي واجهتها كالإسكيمو مثلا .
- منح توينبي دورا حيويا للديانات العالمية في نمو الحضارات، واعتبر الدين روح كل حضارة خاصة الغربية، وناصر فكرة قيام ديانة عالمية تشتمل على جميع الحضارات والأديان.
- درس توينبي الحضارة الإسلامية وفق منظور التحدي والاستجابة معتمدا على التراث الاستشراقي لكن بدت واضحة تلك التناقضات في أفكاره اتجاه الحضارة الإسلامية وحكمه عليها، وهذا ما

جعلنا نستخلص تلك النزعة الإيديولوجية والدوافع السياسية في خدمة الغرب أكثر منها دوافع معرفية أكاديمية.

لكن هذه النظرية التي أسسها توينبي وقدّمها بالشرح والتحليل والتي جسّدت فكره حول قيام الحضارات ونشوءها وانهيارها، لم تخلو كغيرها من النظريات من الانتقادات التي وُجهت إليها من طرف المؤرخين والمفكرين مثل المؤرخة الفرنسية "سيمون دي بو فوار" و الماركسيين الذين اتهموا أرلوند توينبي بمجافات الروح العلمية القائمة على تفسير التاريخ تفسيرا اقتصاديا، ولجوءه هذا السبيل إلى الاستعانة بالغيبيات؛ ذلك أن الماركسيين يعتبرون أن الأحوال الاقتصادية لأي جماعة إنسانية هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضاراتها، فمن أجل فهم نظام أي مجتمع سواء سياسي أو ديني أو فني يجب أولا استيعاب نظامه الاقتصادي[1] .

لكن بعد كل هذه الانتقادات التي وجهت لأرلوند توينبي، إلا أنه لا يمكننا أن ننكر هذا العمل الضخم الذي قام به،لأن التأسيس لأي نظرية ليس بالأمر الهيّن، لاسيما إذا كانت تدرس تاريخ البشرية؛ بالإضافة إلا أن الدراسات الحضارية جديرة بالبحث خاصة ما نلحظه اليوم من اهتمام متزايد في الفكر الفلسفي خاصة و الاجتماعي عامة حول العلاقات الحضارية.

[1]/ محمد تقي الحكيم، أضواء عل أطروحات توينبي في فلسفة التاريخ، burathanews.com/news/156366.html، التاريخ: 2015/04/19، الساعة: 08:12.

قـــــــائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

. أولا/ المصادر:

أ/ بالعربية:

1/ القرآن الكريم.

2/ إنجيل متى.

3/ أرلوند توينبي، الحضارة في الميزان، تر: أمين محمود الشريف، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية 1948م.

4/ أرلوند توينبي، الحرب والحضارة، تر: فؤاد أيوب، دمشق، دار دمشق، 1950م.

5/ أرلوند توينبي، تاريخ الحضارة الهللينية، تر: رمزي جرجس، القاهرة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1957م

6/ أرلوند توينبي، العالم والغرب، تر: نجدة هاجر و سعيد الغز، ط 01، بيروت، المكتب التجاري، 1960م

7/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، تر: فؤاد محمد شبل،ج01، ط01، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1960م.

8/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل،ج03 ،ط01، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1961م.

9/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، تر: فؤاد محمد شبل،ج02، ط01،القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964م.

10/ أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، تر: فؤاد محمد شبل،ج04، ط02،القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ، 1965م.

11/ أرلوند توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق، تر: لمعي المطيعي، ط3،القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1990م.

12/ أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، تر: نقولا زيادة،ج01 ، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 2004م

ب/ بالأجنبية:

01/ Toynbee, Arlond, Josef, A study of history, London, Oxford Unieversity press,1948.

02/Toynbee Arlond ; l'histoir; traduit de l'anglais par jacques poitn et autres; Paris; Brouxells; elsevier séquoir; 1975

ثانيا: المراجع:

أ/ بالعربية:

01/ابن خلدون، المقدمة، ط ،05، بيروت، دار القلم، 1974م.

02/ أحمد أمين، فجر الإسلام، ط02، بيروت،دار الكتاب العربي، 1929.

03/ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، القاهرة، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1975.

04/ إسماعيل راجي الفاروقي و لوس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، تر: عبد الواحد لؤلؤة ط01، الرياض، مكتبة العبيكان، 1998.

05/ أشفيستر، فلسفة الحضارة، تر: عبد الرحمن بدوي، مر: زكي نجيب محمود ، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، 1963.

06/ أوزفالد اشبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، بيروت، دار مكتبة الحياة.

07/ بليخانوف. فلسفة التاريخ المفهوم المادي للتاريخ، دت .

08/ ج، ويلتر، الهرطقة المسيحية، تر: جمال سالم، بيروت، دار التنوير، 2007.

09/ جاسم سلطان، أداة فلسفة التاريخ(سلسلة أدوات القادة)، د ت.

10/ جون كولر، الفكر الشرقي القديم، تر:كامل يوسف حسين، العدد 199،سلسلة عالم المعرفة ،1995.

11/ حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، التراث والتجديد موقفنا من التراث الغربي،القاهرة، الدار الفنية، 1991.

12/ حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخين، القاهرة، دار المعارف، 1984.

13/ رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ(نظريات في فلسفة التاريخ)، الإسكندرية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000.

14/ رأفت الشيخ، فلسفة التاريخ، القاهرة، دار الثقافة، 1988.

15/ ستيفين دنسيمان، الحضارة البيزنطية، تر: عبد العزيز توفيق، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1997.

16/ سهيل زكار، التوراة ، ط01، بيروت، دار قتيبة، 2007.

17/ صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، تر: طلعت الشايب، ط02،أمريكا 1999م.

18/ صائب عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي . دراسة مقارنة بالمدارس الغربية الحديثة والمعاصرة، ط 02، بيروت، دار البصائر، 2014م.

19/ عبد الرحمن بدوي، العصور الوسطى، ط3، الكويت، بيروت، دار القلم، 1979.

20/ عبد الفتاح المغربي، الفكر الشرقي القديم، ط01، القاهرة، مكتبة وهيبة، 1996.

21/ عبد اللطيف سليمان، الفن الإغريقي، الجامعة الدولية الخاصة للعلوم والتكنولوجيا.

22/ علي السرميني، حلا الصابوني، الفن الجداري الآشوري، المجلد25، العدد 01 ، مجلة دمشق للعلوم الهندية، 2009.

23/ عيد مرعى، اللسان الأكادي، دمشق،الهيئة العامة السورية للكتاب، 2012

24/ غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، القاهرة، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة 2012.

25/ ف.آ.بيلافيسكي، أسرار بابل، تر: رؤوف موسى جعفر الكاظمي، العراق، دار المأمون ، 2008.

26/ فرنسيس فوكو ياما، نهاية التاريخ وخاتمة البشر، تر: حسين أحمد أمين، ط03،مصر مركز الأهرام، 1993.

27/ فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تر: فليكس فارس، الإسكندرية،مطبعة جريدة البصير، 1938.

28/ كريس هارمان، النبي،تر مركز الدراسات الاشتراكية، مصر،1996.

29/ كولون ولسون، سقوط الحضارة، تر: أنيس زكي حسين، ط03، بيروت، دار الآداب، 1982.

30/ مالك بن نبي، شروط النهضة(مشكلة الحضارة)، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر1986.

31/ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي(مشكلات الحضارة)، تر:بسام بركة وأحمد شعبو، ط01، دمشق،دار الفكر، 1988.

32/ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، ج01، ط02، دمشق، دار الفكر، 1962.

33/ محمد عبد الله الشفيقي، محمد عبد الله، مع أرنولد توينبي، القاهرة، الدار القومية ، ط1، 1991.

34/ محمود عبد الله أبو الخير، ديوان حروب الردة، ط01،عمان، دار جهينة.

35/ مروان بركات، عفرين عبر العصور، ط1، حلب، دار عبد المنعم، 2007.

36/مصطفى الشكّعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، ط 03، بيروت، الدار المصرية اللبنانية، 1992.

37/ مصطفى النشار، فلسفة التاريخ، ط01، شركة الأمل للطباعة والأمل، 2004.

38/ نياقة الأنبا إيسوزوس، تفسير سفر المكابين الأول، ط1 ، مركز دلتا للطباعة، 2003 .

39/وول ديرونت، قصة الحضارة، نشأة حضارة الشرق الأدنى، ج02، ط06، دار المعارف، 1988.

ب/ بالأجنبية:

1/ Machiavel Nicolas. Le Prince,TRADUIT de l'italien par Jean Vinont Peries, Algérie, Talantikit,2004,p162.

ثالثا: المعاجم والموسوعات

قائمة المصادر و المراجع

أ/ بالعربية:

01/ ابن منظور جمال الدين محمد، لسان العرب، المجلد04، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1955 .

02/ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية،تع: خليل أحمد خليل، المجلد 01، ط01، بيروت، منشورات عويدات، 2001م.

03/ جميل صليبا، المعجم الفلسفي ج1، بيروت، دار الكتاب اللبناني 476، مكتبة المدرسة، 1982.

04/ زكي نجيب محمود و آخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، بيروت، دار القلم.

ب/ الأجنبية

1/ Donaldm, Borchert, Encyclopedia of philosophy, America,Thomson, 2nd edition,1934,p55.

رابعا: المجلات والدوريات

1/ إسماعيل محمد الزيود، إرهاصات النهضة في المجتمع العربي دراسة سوسيولوجيه في ضوء نظرية التحدي والاستجابة ،العدد01، المجلد40، دراسات العلوم الإنسانية و الاجتماعية، 2013.

2/ محمد زياد كبة القنبلة في التاريخ مجلة الفيصل السعودية ،العدد 100 دار الفيصل الثقافية، جويلية 1985.

خامسا: الرسائل الأكاديمية

1/ جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أوزفالد اشبنجلر، رسالة ماجستير، إشراف: عبد المجيد عمراني، باتنة، كلية العلوم الإنسانية، 2013/2012.

2/ زياد عبد الكريم النجم، الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، رسالة ماجستير، إشراف: عيسى بشارة، دمشق، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2007.

3/شبلي هجيرة، إشكالية مستقبل العلاقة بين الحضارات. زكي الميلاد نمـــوذجـــا،رسالة ماجستير إشراف: عمراني عبد المجيد، باتنة، قسم العلوم الإنسانية، 2013/2012 .

4/هدى بوفضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرلوند توينبي . المسيحية نموذجا. رسالة ماجستير، إشراف: موسى معيرش، قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية2008/2007.

سادسا: الوثائق الالكترونية

01/ محي الدين صالحي، كيف تهيأت الجزيرة العربية لميلاد الحضارة الإسلامية،www.djelfa.sinfo/vb/showthread التاريخ:2015/04/13، على الساعة: 21:01.

02/راغب السرجاني، قصة الإسلام، indo@islamstory.com التاريخ: 2015/05/12، الساعة:22:24.

03/ محمد تقي الحكيم، أضواء عل أطروحات توينبي في فلسفة التاريخ، burathanews.com/news/156366.html، التاريخ: 2015/04/19، الساعة: 08:12.

الفهارس

فـــهرس الآيات

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات

فهرس الآيات

1/ القرآن الكريم

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
يقول الله تعالى:" اتَّخذ قوم موسى من بعده من حُليّهم عجلا جسدا له خُوار ألم يروا أنه لا يُكلمهم ولا يُهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين"	الأعراف	148	29
يقول الله تعالى:"وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون"	سبأ	34	84

2/ آيات الكتاب المقدس

اسم الإنجيل	الإصحاح	الآيـــــــــة	رقم الآية	الصفحة
متى	09	ولا تجعلون خمرا جديدة في زقاق عتيقة لتلا ينشف الزقاق، فالخمر تسكب، والزجاج يتلف، بل يحملون خمرا في زقاق جديد	16,17	68

فهرس الأعلام

الأعلام	الصفحة
أرنولد توينبي	أ، ب، ج، د ،9,8،7، 10، 11، 12، 13، 14، 15 ،16، 17، 18، 19، 20، 23، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 50، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 77، 78، 79، 80، 81، 82، 83، 86، 84، 85، 88، 89، 90
ابن منظور	51، 60
أبو بكر الصديق	77
أحمد أمين	73
أحمد محمود صبحي	د، 64، 62,66
ادوارد جيبون	أ
الإسكندر	25، 69
ألبرت اشفيستر	53

آمنة تشيكو	62
أندري لالاند	24، 53
أوزفالد اشبنجلر	أ،ج، د،17، 18، 54، 65، 66، 85
توكفيل	45
تيجارت	20
جميل صليبا	51
جورج هيجل	20
حسن حنفي	61
رأفت غنمي الشيخ	د
زكي الميلاد	52
زياد عبد الكريم النّجم	د
سيمون دي بوفوار	90
سيغموند فرويد	21
صلاح الدين الأيوبي	81
صموئيل هنتنغتون	39
عبد الرحمان ابن خلدون	ت، 13، 14، 15، 16,37، 52
عبد الرحمان الداخل	79

غوستاف لوبون	71
فتجينشتاين	50
فرنسيس فوكو ياما	44
فريديريك نيتشه	45، 89
القديس أوغسطين	10، 11، 12، 13، 55
كولون ويلسون	65، 68، 84
مالك بن نبي	66، 35، 83
المأمون	79، 80
محمد الفاتح	78
محمد صلى الله عليه وسلم	72، 75، 76، 77، 83
معاوية بن أبي سفيان	78
المعتصم	79، 80
موسى	29
نيقولاي دانيليفسكي	18، 19، 20
نيكولاي ميكيافلي	65
هدى بوفضة	د
هيرودوت	29، 47

وان وانج	26
وول ديرونت	59
يونج	20، 21

فـــهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات **الصفحة**

مقدمة..... أ ـ د

الفصل الأول: توينبي ونضوجه الفكري الفلسفي العالمي.....07ـ21

المبحث الأول: نبذة عن حياة أرلوند توينبي. 07ـ09

المبحث الثاني:المؤثرات الفكرية الكبرى التي صاغت فكره.....09ـ21

الفصل الثاني: تأسيس توينبي لنظرية التحدي والاستجابة.....23ـ48

المبحث الأول: مفهوم نظرية التحدي والاستجابة 23ـ27

المبحث الثاني: أنواع التحديات والاستجابات 28ـ38

أولا: أنواع التحديات.....28.

1/التحديات الأسطورية.....28

2/التحديات الخاصة بالبيئة الطبيعية.....29

3/التحديات الخاصة بالبيئة البشرية.....31

ثانيا:أنواع الاستجابات.....34

1/استجابات فاشلة 35

فهرس الموضوعات

2/استجابات ناجحة 36

المبحث الثالث:الجانب الإيجابي والجانب السلبي من النظرية 39ـ48

أولا: الجانب الإيجابي.....39

1/ فكرة الأبوة والبنوة.....39

2/ فكرة المدنية المقابلة للبدائية.....39

3/فكرة أوقات الاضطراب..... 40

4/فكرة البروليتاريا الداخلية.....41

5/ فكرة البروليتاريا الخارجية.....41

6/ فكرة الدولة العالمية والكنيسة العالمية.....41

7/ فكرة المجتمعات التي كانت متمدنة ثم بادت أو تحجرت.....43

ثانيا: الجانب السلبي.....43

1/ نقد نظرية وحدة الحضارة.....43

2/ نقد نظرية الأجناس.....45

3/ نقد نظرية البيئة الطبيعية.....47

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث: البعد الحضاري عند توينبي.....50ـ86

المبحث الأول: مفهوم الحضارة 50ـ 55

1/ من الناحية اللغوية 50

2/ من الناحية الاصطلاحية.....52

المبحث الثاني: نشوء الحضارات وتعاقبها 56ـ70

1/ ميلاد الحضارات.....56

2/نمو الحضارات وطبيعة ارتقائها.....60

3/ انهيار وتحلل الحضارات.....63

4/ طبيعة ومظاهر التحلل الحضاري.....67

المبحث الثالث: تطبيق نظرية التحدي والاستجابة في المعطى التداولي العربي الإسلامي.....71ـ82

1/ ميلاد الحضارة الإسلامية 71

2/ ارتقاء ونمو الحضارة الإسلامية 76

3/أزمة الحضارة الإسلامية 79

المبحث الرابع: مقترحات توينبي لإنقاذ الحضارات.....82ـ86

فهرس الموضوعات

1/الابتعاد عن الحرب.....82

2/العودة إلى الدين.....84

خاتمة .....88_89

قائمة المصادر والمراجع.....91_98

فهرس الآيات.....101

فهرس الأعلام.....103_105

فهرس الموضوعات.....107_110

ملخص الدراسة

إن البحث في فلسفة الحضارة اقتضى من العديد من المؤرخين الغربيين الكتابة في ذلك، ويعد أرنولد توينبي من الفلاسفة المؤرخين الذين اهتموا بدراسة مصير الحضارات الغربية، نظرا للأوضاع السيئة التي استفاق عليها الغرب، ويجسد ذلك في تأسيسهنظرية التحدي والاستجابة التي بيّ ن من خلالها كيفية نشوء الحضارات وتعاقبها والمقارنة فيما بينها، وهذا ما دفعنا لاختيار هذا الأنموذج الفلسفي بغية الكشف عن الكيفية التي ناقش بها توينبي موقفه المتميز من الحضارات متخذين ثلاث فصول: ففي الفصل الأول عرفنا بالشخصية وكل مايلم بها، من عصره إلى الأوضاع التي عاشها وأهم إنتاجياته العلمية ، مرورا بأهمالتيارات الكبرى التي رسمت أفكار ه، أما عن الفصل الثاني فقد تناولنا فيه نظرية التحدي والاستجابة من المدلول إلى الأهمية حيث عر ّجنا على أنواع كل من التحديات والاستجابات وأهم الأفكار التي تمخضت عن تأسيسه لهذه النظرية مثل فكرة الأبوة والنبوة، وفكرة أوقات الاضطراب...الخ

أما عن الفصل الثالث: فقد شمل نظرة توينبي للحضارات حيث قدمنا المفهوم الذي رمى إليه مصطلح الحضارة سواء من وجهة نظره أو من وجهة نظر غيره بالإضافة إلى التعاقب الدوري للحضارات من ميلادها ونموها وصولا إلى انحلالها وفنائها،حيث مي ّزنا دراستنا بتطبيق هذه على الحضارة الإسلامية نظرا لأهميتها في دراسة توينبي للحضارات، إذ حاولنا أن نبين كذلك أهم المقترحات التي صاغها توينبي لكي ينقذ الحضارات من الفناء والتحلل.

Abstract

Several western historians have conducted researches concerning civilization philosophy. Arlond Toynbee has been one of the philosophers who studied the future of the western civilizations. Regarding to the difficult conditions within western societies, he had established a theory known as the Challenge and the Response in which he explained the emergence of the civilization and the way they had succeeded each other, as well as provided a comparison between them. For this reason we select this philosophical patern in order to investigate the way Toynbee had discussed his opinion about civilization.

This study is divided into three parts. In the first part, we defines Toynbee and give information about the era and the conditions in which he lived as well as his scientific products and his movement of thought. In the second part, we deal with his theory of the challenge and the response startinf by giving definitions and its emergence and mentioning all types of the challenges and the responses and the important ideas resulted from his theory such as the idea the fatherhood and the childhood, and the idea of the time of confusion. Whereas, the third part contains Tyonbee's opinion about civilization. It also presents the different notions of civilization whether from Tyonbee's point of view or other historians' piont of view. In addition to this, it introduces the periodical succession of civilization starting from its emergence and development moving to its declination. The purpose of this study is the application of Tyonbee's theory on the Islamic civilization since it is important in his studies of civilization. Finally, we articulates Tyonbee's suggestions for rescuing civilizations from declination.